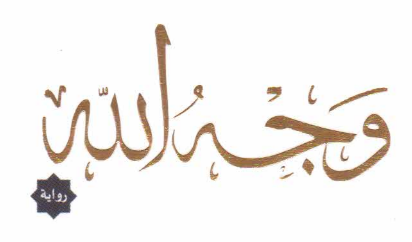
الرواية الأكثر مبيعاً



رواية

مصطفى مستور





تناقش هذه المعزوفة الصوفيّة، وبعُمق؛ أعقد الأسئلة الوجوديّة وأكثرها بداهة وإلحاحًا في لُغة سهلة قريبة، بعيدة عن إبهام الحداثيين وتخبُّطهم. فيتتبّع الفنان الحركة الوجدانيّة لشخوصه الحائرة في ذكاء، يغوص في أعماقهم ولا يفرض عليهم يقينه بشكل خطابيّ استعراضيّ، بل يمضي مع كل منهم في طريقه؛ ليكشف ملتقى تلك الطرق. يقترب ويبتعد؛ يُشكّل جدليّة اجتماعيّة معرفيّة شعوريّة فريدة. جدليّة غزَلَها في بساطةٍ من خيوط حرير فارسي متين، لتستعيد الشكل الكلاسيكي للرواية في قالب مُغرق في المحليّة. في هذه الرواية لا يستعيد مستور قالب الرواية فحسب، بل يستعيد معه الإنسان، بإعادة تعريف الحُبّ. هذه رواية عن الشك واليقين، والشغف والحيرة، والحب والتيه؛ هذه قصّة الإنسان.

مصطفى مستور

روائي إيراني ولد في مدينة الأهواز. نشر قصصًا قصيرة من ١٩٩١ إلى ١٩٩٩، ثم جمعها في مجموعة لم تلق إقبالاً يُذكر. ثم نشر هذه الرواية: «وجه الله» عام ٢٠٠١، فحققت نجاحًا ساحقًا واختيرت كأفضل رواية في إيران عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٢، ونالت جائزة القلم الذهبي، وطُبعت أربعًا وثلاثين طبعة خلال عشر سنوات. ثم نشرَ مجموعتين قصصيّتين ناجحتين قبل أن ينشُر روايته الثانية، عام ٢٠٠٥؛ والتي لاقت إقبالاً واسعًا. وفي عام ٢٠٠٦ نفدت مجموعته القصصيّة الجديدة فور طباعتها بسبب الإقبال منقطع النظير. وحين نُشرت روايته الثالثة عام ٢٠٠٩؛ كانت أكثر الكُتب مبيعًا في معرض طهران الدولي للكتاب. ثمّ طُبعت مجموعته القصصيّة الأخيرة، عام ٢٠١٠؛ ست طبعات خلال ستّة أشهُر. ليُسطّر مستور اسمه كواحد من أهمّ عشرة روائيين وأكثرهم شعبيّة خلال ثمانين عامًا هي عُمر الأدب الروائي الإيراني الحديث.



ص ب ٥٦١١ - كود ١١٧٧١
هليوبوليس غرب - القاهرة - مصر
dartanweereg
www.dartanweer.com

ISBN 978-977-5015-19-8


الخطوط للفنان المصري:
عبدالغني شعير

مصطفى مستور



نقله إلى العربية

غسان حمدان

التحرير

عبدالرحمن أبو ذكري



الطبعة الأولى

٢٠١٤م/١٤٣٦هـ

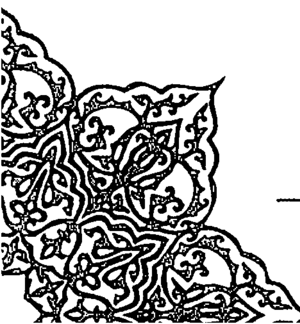
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٤/١٩٣٥٢



هذه هي الترجمة العربية الكاملة لرواية:
روی ماه خداوند را ببوس: مصطفى مستور، نشر مرکز، تهران، ٢٠٠١.
وتنشر بموجب اتفاق مع المؤلف.



ص ب ٥٦١١ – كود ١١٧٧١
هليوبوليس غرب – القاهرة – مصر
البريد الإلكتروني: info@dartanweer.com
dartanweereg
www.dartanweer.com



بسم الله الرحمن الرحيم

"ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله
وعمل صلحا وقال إنني من المسلمين"

صدق الله العظيم

(فصلت: ٣٣)

غسان حمدان؛ باحث إعلامي ومترجم عراقي. درس في إيران، وهو مهتم بعلم الاجتماع الإيراني وفلسفة الأديان القديمة. عمل مدرسًا للأدب الفارسي والترجمة الأدبية، كما ترجم عشرات الكتب والأفلام السينمائية والمسلسلات والبرامج التلفزيونية بين اللغتين الفارسية والعربية، وله عدّة مقالات في التصوّف وعلم الاجتماع الإيراني.

عبدالرحمن أبوذكري؛ أديب ومفكر ومترجم وناشر مصري. وُلِد بالقاهرة، وتخرَّج في كلية الآداب بجامعتها. نشر عدة مقالات وأوراقًا بحثية في موضوعاتٍ متنوعة؛ تصُب جميعًا في استعادة مركزية الوحي الإلهي وتجديد الاجتهاد في الفكر والحركة الإسلاميين. مُهتمٌ بالنقد الأدبي. ويمكن اعتباره امتدادًا لمدرسة «تجديد الدرس الكلامي الإسلامي» التي دشّنها سيّد قطب، ورسّخها علي عزت بيغوفيتش، وأثراها عبد الوهاب المسيري. نُشر له كتاب: «أفكار خارج القفص»، وله عدة ترجمات وكتب في طريقها للطبع؛ منها: «طير بلا أجنحة»، و«في أصول التصوّر الإسلامي».

لكل منا كوة نحو الله؛ تنفتح إن اغتم، وتتسع رحابتها إن اشتد عليه الغم.

١

اشتريت بضعة عيدان من أزهار الأوركيد الوردية؛ ألقيت بها على المقعد الخلفي للسيارة، وانطلقت إلى المطار. كانت الشمسُ تحتضر في نهاية الأفق فوق إسفلت الطريق السريع الموصل لمدينة كرج.

عندما سافر مهرداد[١] منذ تسع سنوات إلى الولايات المتحدة، كنا قد التحقنا قبل عامين بقسم الفلسفة في جامعة طهران. راسل مهرداد صديقته التي عشقها بالمراسلة، وترك دراسته في منتصفها؛ وهاجر خلفها إلى أميركا. كان ذلك منذ زمن طويل. كنتُ قد نسيت مهرداد، حتى اتصلت أمه بي وأخبرتني إن عليَّ الذهاب لاستقباله في المطار. اعتصرت ذاكرتي كثيرًا لأستحضر تفاصيل وجهه. انعطفت من الطريق السريع في اتجاه المطار، وذكريات المدرسة تتابع في خاطري؛ المقعد الخشبي الذي كنا نتقاسمه، والذي ازدحم بالقصائد التي حفرها مهرداد بنصل سكين عباس. كانت غالبًا من غزليات «حافظ».[٢] لم يكن شعره لمحبوبة حقيقية؛ إذ لم يكن قلبه قد تعلق

---

(١) اسم مركب من مقطعين: «مهر» وتعني الشمس، و«داد» تعني عطاء؛ لتصير: «عطاء الشمس».

(٢) شمس الدين محمد بن بهاء الدين حافظ الشيرازي (١٣١٠ - ١٣٨٩م)؛ حافظ القرآن، وأكبر الشعراء الغنائيين الفرس. تميز غزله بالعفة، فحظي عند الفرس بتقدير كبير، حتى صار يُستفتح بديوانه. ومن أشهر منظوماته: «خسرو وشيرين» و«ليلى والمجنون».

بأحدٍ بعد. كل محبوبات شعره كُنَّ من نسج الخيال. أنا الوحيد الذي كنت أعرف ذلك. تصوّر زملاء الصف أن لديه عشيقات كثيرات، ولكني كنت أعرف أن مهرداد لا يملك جرأة النظر إلى فتاة ناهيك عن عشقها، غير أني لا أعرف بالضبط ماذا وجد في جوليا - حبيبته الأمريكية - حتى يقع في غرامها.

في تلك الأيام، كان قد انشغل أيضًا بنظم الشعر، وكان يرجو زميلنا بابكَ،[1] الذي كانت لغته الإنجليزية أفضل منا جميعًا؛ أن يُترجم قصائده، قبل أن يُرسلها بالبريد إلى جوليا.

في إحدى المرات التي كان يحفر فيها على المقعد؛ رآه السيد كوهي[2] -أستاذ الرياضيات- فقذفه بالطبشور، وسأله عما يكتب. خبأ مهرداد الكتابة بدفتره، وعندما رفع المعلم الدفتر وضربه به على رأسه ووجهه، وطرده خارج الصف؛ استطاع كل الطلاب أن يقرؤوا ما حفره على المقعد. كان مهرداد قد كتب بخطٍ رديء: «I love you».

انطلق صوت لطيف عبر مكبرات الصوت في صالة الانتظار الخاصة بالمطار: «لحظات وتهبط الرحلة رقم ٣٥٢ (بريتش إيرويز) في مطار مهر آباد/ على مسافري الرحلة رقم ٩٤١ المغادرة إلى فرانكفورت؛ التوجُّه إلى النافذة رقم ستة/ النداء الآخير للمسافرين على الرحلة رقم ٥١١ والمتوجهة إلى أثينا؛ يُرجى التوجُّه إلى المخرج الثالث للمغادرة».

---

(١) تصغير: «أب».

(٢) يعني: جبلي أو وعِر.

ما أكثر الناس!
من أين جاء هؤلاء جميعًا؟!
الحذر في خطوات العابرين من حولي، خوفًا من الانزلاق على أرض المطار اللامعة؛ يجعل المشهد أبطأ، بدرجة لا تتناسب مع حيوية الصوت المُتردد في صالة الانتظار.
طفلة تضع قناعًا مُخيفًا على وجهها، وتتبع أمها راكضة.
يُشعل رجلٌ سيجارته، ويحار أين يرمي عود ثقابه.

تهبط طائرة وتقلع أخرى، وتدور أرقام وحروف اللوحة أمامي بسرعةٍ مذهلة، إلى أن تتوقف على: أنقرة، طهران، ٧٩٥. أسأل نفسي: «هل الله موجود؟».

يعود الصوت في صالة انتظار المطار مرة أخرى: «تهبط بعد لحظات، في مطار مهر آباد؛ طائرة الخطوط الإيرانية القادمة من أنقرة».

تتسابق الأعيُن نحو بوابة الخروج. أرفع أزهار الأوركيد لئلا تذبُل. أُميِّز مهرداد من بين الجموع. كان يرتدي سترةً جلدية بنية اللون، وبنطالًا من الجينز الأزرق فاقع اللون. يُخفي عينيه بنظارة سوداء تضفي عليه هيئةً أمريكيّة. لا يزال نحيفًا كما كان، وعظامه بارزة. فقط ازداد طوله بعض الشيء، ونما فوق شفته شارب رجولي. قصدته بعد أن خرج من بين الحشد.
- مرحبًا يا مهرداد.

تطول اللحظات، كأني رأيت صورنا صغارًا في زجاج نظارته؛ مقاعد المدرسة المتهالكة، وقصائده المحفورة فيها... كأنه، في تلك اللحظة التي

طالت بيننا؛ يتعرَّف عليّ في نفس الصور قبل أن يُلقي بنفسه في أحضاني؛ ليطن صوت بكائه الخافت في أذني. استغربت بكاءه، وضغطت خصره بباقة الأوركيد؛ قائلًا: «على رسلك أيها الرجل الكبير».

حين كنت أحتضن مهرداد؛ رأيت خلف كتفه امرأة آخذة بيد طفلٍ منغولي في آخر صالة الانتظار، وهي تتجه صوب محل بيع الصحف القابع في زاوية الصالة؛ كان رأس الطفل كبيرًا وغريبًا وغير طبيعي.
قال مهرداد: «ليتني ما كنت».
قُلتُ في نفسي: «ربما الله ليس موجودًا».

قطعت الطريق بسيارتي، تحت الأمطار الغزيرة؛ من المطار إلى مطعم برك.[1] كنت أريد الحديث معه قليًلا، قبل أن أُعيده إلى المنزل. لا أعرف أي جُرمٍ ارتكب في فلوريدا، أو ما الذي رآه حتى يُقطِّبُ حاجبيه مثل الأطفال، ويتقوقَع على نفسه.

عثرنا على طاولة لشخصين في زاوية هادئة من صالة المطعم. وبينما كنت أطلب الطعام، كان مهرداد يغسل يديه ووجهه، ويعود ليجلس في المقعد المقابل لي. كنا في بداية شهر دي،[2] وقد بدأ الجو يبـرُد. كان المطعم خاليًا إلا من شابٍ وفتاة يبعُدانِ عنا عدة طاولات؛ عند النافذة. أزاح مهرداد نظارته، فاستطعت رؤية وجهه كاملًا بعد تسع سنوات.

---

(١) تعني: نجم.

(٢) الشهر العاشر في التقويم الفارسي، ومنتصفه يوافق الخامس من شهر كانون الأول/ يناير.

قلت: «أريدك أن تخبرني عن الأماكن الجميلة في فلوريدا، ولكن أولًا وقبل كل شيء؛ حدثني عن جوليا».
ابتسم بمرارة؛ وتمتم: «يا لبرودة الجوّ!».

أحضر النادلُ الأطباقَ، ورتبها على الطاولة.

أُحَدِّقُ بالشاب والفتاة، وقد تشابكت نظراتُهم؛ دون أن أستطيع تخمين ما الذي يبحثان عنه في عيون بعضهما البعض. نقل مهرداد عدّة قطعٍ من البطاطس المقلية إلى صحنه، أما أنا فكنت مثل ذئب جائع.

قلت: «أنا مُضطرب بما يكفي؛ فأرجوك لا تُزِد الأمور سوءًا. أخبرني ماذا فعلت مع جوليا». سكب مهرداد بعض الكِتشَب على البطاطس، وارتسمت ابتسامته المريرة مرة أخرى على شفتيه؛ وهو يقول: «كنت أعتقد أن المجانين موجودون هنا فقط، ولكن جوليا أثبتت لي أنه يمكن العثور على المجانين في فلوريدا أيضًا...». صمت قليلًا ثم أضاف: «كانت هي واحدة منهم».
- أيعني هذا أنه يوجد هناك أشخاص مثلي ومثلك أيضًا؟
- كانت جوليا أكثر جنونًا مني ومنك.
فأضفت ضاحكًا: «أهي أكثر جنونًا من علي رضا؟».

فكر مهرداد للحظة، لعلّه كان يحاول فيها تذكُّر علي رضا، ثم تناول قطعة بطاطس؛ وسأل: «ذكّرتني... ما هي أخبار علي؟».

- قاتل على الجبهة لفترات مُتقطِّعة بعد انتقالك إلى أميركا، وبعد القرار؛[1] عاد وحصل على شهادة في هندسة الكمبيوتر من جامعة أمير كبير الصناعية، ثم نال درجة الماجستير في هندسة الإلكترونيات.

سأل: «وماذا فعلت بدراستك؟».

أجبته: «درست الفلسفة كأي طالب مجتهد، وبعد ذلك نلت الماجستير في علم الاجتماع، والآن، لتطرش أذن الشيطان؛[2] أكتب رسالة الدكتوراه في مجال البحوث الاجتماعية». سكبت قليلًا من الليمونادة في كأسي، وألقيت نظرة على الشاب والفتاة اللذين يُجربان الآن لمس أيدي بعضهما البعض؛ وسألته: «وماذا فعلت أنت بدراستك؟».

نظر من النافذة، حيث تظهر قطرات المطر فقط تحت مصابيح الإنارة، ووضع شوكته في زاوية من الصحن؛ وقال: «كنت مجنونًا بجوليا في العامين الأولين، ومن ثم درست في شُعبة الفلك من علم الفيزياء. وأنا الآن أدرُس في مرحلة الماجستير بذات التخصُص. في السنتين الأوليَيْن كنت أجلس وأحدق في جوليا لساعاتٍ مُتأملًا، وهي تبتسم فقط؛ بعدها تزوجنا».

صمت للحظات، ثم حدّق في السكين الموضوعة على الطاولة؛ وقال: «هي متقوقعة على نفسها دائمًا، وتزعم إن لديها أدلة كثيرة تُثبت أنها يجب ألا تكون على قيد الحياة، ولذلك فهي تشعُر دومًا بالاغتراب، وتبحث عن سببٍ وجيهٍ لوجودها».

---

(١) يقصد قرار الأمم المتحدة رقم ٥٩٨، والقاضي بإنهاء الحرب بين إيران والعراق، التي دامت ثماني سنوات (١٩٨٠- ١٩٨٨م).

(٢) كناية واضحة عن درء الحسد.

أخرجَ حافظته من جيب قميصه، وأراني صورة جوليا واقفةً قُرب سوبر ماركت، وهي ترتدي قميصًا مُزررًا لنهايته وتنورة كحلية طويلة، وقد جمعت شعرها خلف رأسها وعقدته.

- فتاة جميلة.

مسح مهرداد نظارته بمنديل ورقي وقال: «لمْ تَرَ أهميةً لذلك قط. وتريد أن تعرف أين كانت قبل خمس وعشرين سنة؛ يعني قبل ولادتها. هي لا تعرف لماذا ولدت قبل خمس وعشرين سنة، وليس قبل ذلك أو بعدها، وتتساءل إذا كان العالم موجودًا منذ آلاف السنين بدونها، فما الذي أتى بها إلى الحياة فجأة قبل خمس وعشرين سنة فقط؟ ويا لها من حياة! مليئة بالعذاب والألم والفقر والمرض والحزن، وتنتهي بالموت. لجوليا مآخذ جدية على الخلق والحياة والموت، وهذا يجعل الحياة في عينيها صعبة ومُرَّة».

شعرت برجفةٍ خفيفةٍ في يديَّ.

رفع مهرداد ياقة جاكتته الجلدية حول عنقه؛ واستفسر: «ألم تتزوج حتى الآن؟». نظرت إلى النادل، وهو يحمل الحلويات للشاب والفتاة؛ وأجبت: «لا، ليس بعد. فأنا منشغل بالأطروحة اللعينة».

وكأن الشاب كان يروي للفتاة قصة مثيرة؛ إذ أخذ يُحرِّك يديه في الهواء ويعبِّرُ بحركات وجهه، وهي تضحك دون توقف.

نظف مهرداد فمه بمنديل؛ وسأل: «وما الذي تدور حوله أطروحتك؟».

- يُفترض أن تكون تحليلًا جامعًا لأسباب انتحار الدكتور محسن پارسا؛[1] الذي ألقى بنفسه، قبل عامين؛ من الطابق الثامن لبناية من ستة وعشرين طابقًا. وقد اشترت مؤسسة البحوث الاجتماعية الأطروحة مُقدمًا، على أن أنهيها بعد ثلاثة أشهر. بعد ذلك؛ ربّما أجد جوليا إيرانية لنفسي. حقًّا؛ لِمَ لَمْ تُحضِر جوليا؟ بعد وصفك لها؛ ازداد شوقي لرؤيتها.

بان الوجوم على وجه مهرداد، واتخذ من يديه مُتكئًا لرأسه، ضاغطًا صدغيه براحتيه.

سألته: «أأنت بخير؟».

رفع رأسه؛ وقال: «ابنتي الآن في الرابعة من عمرها، وقد أصيبت أمها بالسرطان قبل عامين، وأصبحت حالتها النفسيّة سيئة. ترى جوليا إن الفرضيّة الأفضل هي عدم وجود الله؛ وذلك حتى لا نضطر أن نلقي على عاتقه بوزر الأمراض العصيّة على العلاج. تقول إنه ليس من الإنصاف أن يواجه الإنسان صعوباتٍ لا يستطيع التغلّب عليها».

لا يزال رأسهُ متكئًا على يديه. قلت: «وكيف هي الآن؟».

فأجاب، وقد انعقدت نظراته في الصحن الفارغ: «ما الذي يفقده الإنسان بموته، ولا يفقده الأحياء؟ ما هو الفرق بين الميت والحي؟».

لم أكن أصلًا أريد تخمين أي شيء.

---

(١) «پارسا» يعني: العابد أو التقي الزاهد.

أضاف: «إن بينها وبين الموت قاب قوسين أو أدنى؛ إنها بين ذراعي الموت فعليًا، بيد أنها لا زالت تُرزق».

تملّكني الذهول، فلم تتحرك اللقمة في فمي. كرهت نفسي إذ أوصلت الحديث إلى هذه الحافّة بغباءٍ شديد؛ فقلت مُرتبكًا: «آسف، أنا حقًا آسف».

أجهش مهرداد بالبكاء كالأطفال.

صمتُّ للحظات؛ ثم قلت: «أنت أخبَر منّي بمعنى الحياة. وفيما يحدُث فحسب، يكمُن معناها. لا أريد أن أبدو كمن يُشفِقُ عليك، لكن أحيانًا تقع لنا أشياء في الحياة لا نستطيع منع حدوثها. أتفهمني؟ لا نستطيع! إن عجز قُدرتنا هو التفسير الوحيد الذي نملكه».

أسند مهرداد جبهته إلى حافة الطاولة، وحاول ضبط نفسه. نظرت باتّجاه الطرف البعيد للمطعم. لقد انصرف الشاب والفتاة، وكان النادل يُنظِّفُ الطاولة الخالية بالمنديل.

٢

عندما وصلت إلى شقتي، كان الوقت قد تجاوز مُنتصف الليل. كنت قد تركت مهرداد بحالته المضطربة عند أمه. وظللت أفكر في جوليا وكلامها، وأفكر في مهرداد وابنته ذات الأعوام الأربعة؛ التي نسيت سؤاله عن اسمها. شعرت بارتفاعٍ في درجة حرارة جسمي. فتحت النوافذ ورميت بنفسي على السرير، ثم فكرت في الدكتور محسن پارسا طويلًا إلى أن غلبني النعاس. لا أعرف في أي ساعة استيقظت من النوم كالمجنون. كانت الحرارة تُشعّ من عينيّ ويديّ وجبهتي، حرارة تلفّ كل شيء. يلتهب بداخلي شيء؛ كقطعة فحم أو بيدر، تتوهَّجُ بلا نهاية. كنت أشعر برأسي يتورم إلى حد الانفجار، يتورم ويتورم ثم يذبُل فجأة، وأتعرَّق وأشعر بالعطش وأتألم مرة أخرى؛ كأنما يتورم رأسي فيَصغُر. مددت يدي إلى الكوب البعيد، فابتعد أكثر، إلى أن انقبض صدري انقباضًا غريبًا. ألقيتُ بظهري على السرير؛ فخفضتني نوابض السرير ورفعتني وخفضتني حتى توقفت. يا لها من ليلة ليلاء! لم لا يأتي الصباح؟ عصرت منديلًا مُبللًا على جبهتي، فتبخرت القطرات قبل أن تنزل لتطرُد الحُمى من جبهتي. جلست على حافة السرير، وقدماي في طست ماء. كأن شيئًا مثل النسيم يسري من راحة قدميّ إلى ما وراء حاجبيّ؛ فشعرت بالانتعاش. وبعد ذلك شعرت

بحرارة شديدة؛ حُمّى وارتعاش. أأنا على وشك الموت؟ حتى الآن لم أتشبث بأي شيء، ينبغي أن أتمسك بشيء ما قبل الموت؛ أن أغرز أظفاري في التراب قبل الموت، حتى إذا جرّوني على الأرض بالقوة؛ تركتُ أخاديد للذكرى. ينبغي أن أترك أثرًا قبل الرحيل. إن لم أترك شيئًا مني اليوم، فمن سيسمع بي غدًا؟ إن لم يَرَ الآخرون أثر قدمي، فكأني ما وجِدتُ. لا أريد أن ينتفي وجودي. لا أريد أن أكون مثل معظم البشر؛ الذين يأتون ويذهبون دون أن يفعلوا شيئًا، وليس لهم أي اعتبارٍ في التاريخ. لا أريد أن أكون فردًا مغمورًا في تاريخ البشرية. آه، أين أمي؟ أين أختي مونس؟[1] لعنة الله على الأبحاث! وهنيئًا لُمحسن پارسا. يا لي من دارسٍ سيء الحظ! إن لم أستطع تفسير موت آدمي، فلماذا أنا حي؟ شهادتي الجامعية، وعملي، وشهرتي، وحبي، ومستقبلي؛ كلها مُتوقفةٌ على ميتٍ. كل هذه السعادة لم تجتمع في أي وقت، لكنها اجتمعت الآن، وصار تحقُّقها مرهونًا بشخصٍ ميت؛ مرهونٌ بإجابة سؤالٍ واحد: لماذا ذهب الدكتور محسن پارسا، الأستاذ الجامعي والفيزيائي البارز؛ فجأة، ودون أن يمسّه مسٌّ من الجنون؛ إلى الطابق الثامن من برجٍ يرتفع بضعة طوابق فوق العشرين، ثم رمى بنفسه مثل شابٍ مُتيّمٍ من النافذة؛ إلى الشارع... على الإسفلت؟ يا لي من دارسٍ سيء الحظ! إن لم أستطع العثور على جوابٍ علميٍّ مُفسِّرٍ من علم الاجتماع، بعد قراءة أكداس مُكدّسة من الكتب؛ لن أنال درجة الدكتوراه، وسأصيرُ مُتخرجًا أبتر لأني لم أنشر كتابًا، ولن أنال شهرةً أيضًا. إن الشخص المغمور ليس له وجود. أو له وجود ولكن لنفسه فقط، وليس للآخرين، والشخص الموجود لنفسه فقط هو إنسانٌ وحيد، وأنا أخاف من الوحدة.

---

(١) تعني: المؤنس.

٣

أعلنتُ بالصحف منذ عدّة أيام؛ أن على كل من لديه معلومات عن الدكتور محسن پارسا، وسبب انتحاره - أو يعتقد أن معلوماته مفيدة - أن يتصل بي في بيتي أو مكتبي في مؤسسة البحوث الاجتماعية. بقي أقل من ثلاثة أشهر على الفترة المحددة لإنهاء أطروحتي، والأمور تسير ببطء. فكل المعلومات التي جمعتها لم تتعد بضعة أسطر: محسن پارسا. أربعة وثلاثون عامًا. أعزب. نال درجة الدكتوراه من جامعة برنستون الأميركية في اختصاص الفيزياء الكمّية. خبرة أربع سنوات تدريس في الجامعات المحلية. المواد التي درَّسها: أسس الفيزياء الحديثة، النسبية العامة، ونظرية الكم. مؤلفاته أربعة كتب في الفيزياء الحديثة. قيّمه زملاؤه بأنه شخصٌ مُنظمٌ جدًا، وملتزمٌ ومتشدد إلى حدٍ ما. ذو موهبة غير عادية، ونبوغ فريد في التحليل الرياضي للمسائل الفيزيائية. لكن طلابه لا يحبّون أسلوبه، بسبب أسئلته المعقدة في الامتحانات، وبخله الشديد في منح الدرجات. وربما فرح بعض الطلاب لموته. هذا كل ما حصلت عليه عن الدكتور پارسا.

أخرجت شطيرة من حقيبتي، ورميت مسوّدات بحثي على الطاولة. أخرجت من بينها جدول المحاضرات الأسبوعي لپارسا، وقضمت قضمةً

من شطيرتي. فتحت التقويم الموجود فوق مكتبي على التاسع من تشرين الأول؛ يوم انتحار پارسا. كان اليوم يوافق الأربعاء، وطبقًا لجدول محاضراته؛ ينبغي أن يكون پارسا قد حاضر طلبته في فيزياء الكم، في الساعة الثانية بعد الظهر. فكرت أن عليّ التحدُّث لكل الطلاب الذين كانوا حاضرين يوم الأربعاء في محاضرة الكم. ربما يكون پارسا، في محاضرته الأخيرة وقبل خمس ساعات بالضبط من انتحاره؛ قد قال شيئًا في الصف، أو أشار إلى دافعه. ربما ظهر لي طرف خيط، ربما ... دقّ الهاتف.

- مؤسسة البحوث الاجتماعية.
- ألا تزال في مكتبك؟
- سايه؛[1] أهذه أنت؟
- إنها الثالثة بعد الظهر! اتصلت بك في الشقة، ولكن بلا جدوى. ماذا تفعل عندك؟ ألا تزال تفكر في ذلك الدكتور؟ ماذا كان اسمه؟
- پارسا. محسن پارسا. حاليًا آكُل برغر. أأنت بخير؟
- أريد أن أراك.
- هذا المساء، حديقة «هفت بهشت»؛[2] ما رأيك؟
- حسنًا، المكان المعتاد. بشرط ألا نتكلم عن الدكتور پارسا.
- سأنتظرك في الساعة الخامسة.

وضعت السماعة واسترخيت على المقعد، وحدّقت في قائمة بأسماء التسعة عشر طالبًا؛ الذين حضروا آخر محاضرات الدكتور پارسا. وضعت القائمة

---

(١) «سايه» تعني: الظل.

(٢) تعني: ينابيع الجنة السبعة (الكوثر، الكافور، السلسبيل، التسنيم، المعين، الزنجبيل، الميم).

داخل ملف أصفر اللون كنت قد كتبت عليه بخطٍ رديء: «پارسا»، وبلعت بعض شطيرتي. كانت سايه تبتسم في صورة، بالأبيض والأسود؛ تحت زجاج مكتبي. دقّ الهاتف؛ فرفعت السماعة بسرعة. تكلمت فتاة باللغة الإنكليزية بصوتٍ مُتقطع. كان صوتها مُرتبكًا ومتسرّعًا وممضوغًا. أوضحت لها عدّة مرات، بلغتي الإنكليزية الرديئة؛ أن الرقم خطأ، لكنها كانت تتكلم مثل المذياع، وكأنها لم تسمعني:

«... He knocked on the door but I didn't open it. He insisted and insisted but I still kept the door shut. Then he begged and I ignored him. He wanted to narrate me but I told him it is him who should be narrated and not me.

And he said he is completely confused. Like being in a spaghetti junction; he had lost his way. He insisted on solving the problem. And of course he didn't. And he couldn't. And it made me laugh».[1]

ثم بكت، ووضعَتْ السماعة. تعجّبت من بكائها، ووضعْتُ السماعة أنا الآخر. انزلقت نظراتي إلى زجاج المكتب حتى وصلت إلى الصورة الأبيض والأسود الموجودة تحت الزجاج، وتوقفت هناك. ألقيت ورقة تغليف الشطيرة في سلة المهملات.

(١) طرق الباب، لكني لم أفتح. أصّر، وازداد إصراره؛ لكني أبقيت الباب مغلقًا. وبعد ذلك توسّل إليّ؛ لكنني تجاهلته. أراد أن يرويني، ولكنني قلت له إنه هو من يجب أن يُروى، وليس أنا. وقال لي إنه مرتبك تمامًا، كأنه في تقاطع طرق مُتشعّبة، فقد أضاع طريقه. أصرّ على حل المشكلة، وبالطبع لم يحلها. ولم يستطع؛ وهذا ما جعلني أضحك.

٤

اشتريت جريدة، وجلست على مصطبة حجرية مُنزوية في حديقة «هفت بهشت». ينساب من حولي هواء بارد. أقلّب الصحيفة: هبوط سعر العملات/ تدشين مئات المشروعات العمرانية والإنتاجية/ علاج الإدمان باستخدام الإبر الصينيّة/ «كانون» رائدة السرعة والتقنية/ تدريس خصوصي/ تصوير الحفلات/ أصول فلسفة ما بعد الحداثة/ فتح المجاري/ سافروا مع «جهان تور» إلى قبرص، ماليزيا، سنغافورة، اليونان، تركيا، والهند/ إنا لله وإنا إليه راجعون؛ حضرة الصديق العزيز سماحة السيد حاجيان،[1] بقلبٍ يملؤه الأسى والحزن نعزيكم وأولادكم في الفقد المؤلم لزوجتكم الكريمة، و ... مَرَقت من أمامي قطة، وفي مكان ليس ببعيدٍ تلفتت حولها بخوف. كانت القطة تعُض على قطعة لحم بأسنانها، وتبحث عن مكانٍ آمنٍ لتأكُلها. فتسلّقت شجرة ووقفت تترنّح على أحد أغصانها؛ لتفرغ من تناولها. كلما درتُ بعينيّ في المكان، لم أرَ بالقُرب قطة أخرى قد تهددها. لا أفهم لماذا كانت القطة خائفة إلى هذا الحد. سألت نفسي لماذا يتعيّن على الحيوانات تحمُّل البشر لتعيش، لماذا توجد قطط؟ لماذا تكثُر المخلوقات

---

(١) جمع: حاج.

إلى هذه الدرجة؟ الكلاب، القطط، الفئران، النمل، الأشجار، الصخور، البحار، الجبال، النجوم، الأيام، البشر، البشر، البشر، البشر، البشر...

- مرحبًا يا يونس، أتنتظر منذ وقت طويل؟

- مرحبًا، جئت توا. أتُحبّين أن نذهب إلى اليونان؟

- اليونان؟

- مكتوب في الجريدة. نذهب إلى اليونان في شهر العسل؛ ما رأيك؟

جلست سايه قربي.

- ببرودك هذا؛ لا أظننا نذهب إلى أبرقو[1] بعد عشر سنوات أخرى، ناهيك عن اليونان.

وضعت الجريدة على المصطبة الحجريّة.

- هذا ذنب والدك؛ فلن يسمح لنا بالزواج إذا لم أحصل على الدكتوراه.

أخرجت سايه مرآة صغيرة من حقيبتها، وحدّقت بنقطة في وجهها.

- لا شأن لي بكلام أبي يا يونس، قد مضت حوالي السنة، ولم تكتب أطروحتك بعد. في البداية غيّرت أنت موضوع الأطروحة عدّة مرات، وبعد ذلك اخترت موضوعًا لم يوافق عليه أستاذك.

وضعت الجريدة على المصطبة، ونظرت إلى القطة فوق الشجرة، وقد ازدردت وجبتها. تمتمتُ بصوتٍ خفيض: «ليس عندهم من العلم ما يُعينُهم علي فهم أطروحتي».

---

(١) إقليم يقع في محافظة يزد جنوبي إيران، ويُعرَّب بركوه وأبركوه؛ وتعني ناحية الجبل أو فوق الجبل.

وضعت سايه يدها مرة أخرى داخل حقيبتها، وبحثت عن شيء ما.
قلت لها: «ماذا فعلت أنت بأطروحتك؟ عمّ كانت؟».
- كلام الله مع موسى.

أخرجت سايه ملقطًا من حقيبتها، والتقطت بدقّة شعرة من حاجبها، كانت عكس اتجاه بقية الشعر. أدخلتُ يديَّ في جيبيْ المعطف؛ وقلت: «قولي لأبيك أن ينتظر ثلاثة أشهر أخرى، سأحاول إنهاءها خلال هذه المدة. أنا أيضًا مللتُ منها في حقيقة الأمر. لا بد أن سوء حظي هو الذي ربط زواجي بشخصٍ ميت. ولكن يتعيّن علي أن أجد تفسيرًا في نهاية المطاف. ما الذي دهى ذلك الآدمي ليرميَ بنفسه من حالق؟».

أغلقت سايه حقيبتها، وأخرجَتْ يديَّ من جيبيْ المعطف ضاحكةً، ووضعتهما في يديها؛ وقالت: «كان المفترض ألاّ نتحدَّث عن پارسا، يا حضرة الدكتور».

ابتسمتُ، ووقعت عيناي على عزاء زوجة السيد حاجيان؛ الذي يظهر بعضه فقط من تحت حقيبة سايه.

٥

كان الوقت مُتأخرًا عندما وصلت إلى شقتي. كُنت مرهقًا جدًا، بحيث لم أعد أستطيع حراكًا. بل أوشكت على النوم واقفًا في المصعد الذي حملني إلى الطابق التاسع. لقد قطعت من المسافات سيرًا على الأقدام، في الأيام القليلة الماضية؛ بقدر ما فعلت في كل ما سبق من عمري. وتكلمت، وسألت، ودوَّنت، ولم أحصل على جوابٍ؛ فأنهكت. أخرجت تفاحة من الثلاجة، وضغطت زُرّ المُجيب الآلي للهاتف:

«مرحبًا يا سيدي. أردت القول إن الإنسان يجب أن يكون عاطلًا حقًا عن العمل؛ ليُهدر وقته في مثل هذه الأمور. فبدل أن تكتب بحثًا علميًا عن شخصٍ ميتٍ، اكتب بحثًا عن الأحياء ..... مرحبًا يا يونس، اتصلت عدّة مرات، ولكنك لست موجودًا. اتصل بي إذا كان لديك وقت؛ فلدي أسئلة تخُصُّ أطروحتي، وأعتقد أنك تستطيع إجابتها. أحبك، سايه ..... مرحبًا يا يونس، أنا مهرداد. لا أريد الحديث في موضوعٍ مُعيّنٍ، ولكني مكتئبٌ، وأردت التنفيس قليلًا فقط. إذا كان لديك وقت؛ اتصل بي».

قضمت قضمةً أخرى من التفاحة، وألقيت بنفسي على الأريكة. ليس بي طاقة لأخلع حذائي. الوصول إلى سبعة عشر طالبًا، من أصل تسعة عشر؛ حضروا المحاضرة الأخيرة للدكتور پارسا، والحديث إليهم، وسؤالهم، والاستماع إليهم، وعدم الفهم عنهم؛ جعلني مُرهقًا بشدّة. نهضت وفتحت النافذة المُطلة على الشارع. لم أجنِ شيئًا مُهمًا من حواراتي مع الطلاب؛ كان بعضهم لا يذكر شيئًا، وقال البعض الآخر إن پارسا بدا حزينًا بعض الشيء في ذلك اليوم، ولكن كل الطلاب أجمعوا تقريبًا على أنه كان لطيفًا في مُحاضرته الأخيرة، قياسًا إلى محاضراته السابقة. نظرت إلى أسفل؛ كانت السيارات تمُرق مُسرعةً من جهةٍ لأُخرى مثل فئرانٍ احترقت رؤوسها. بقي في القائمة طالبتان فقط، عليّ لقاؤهما؛ إحداهما شُهرة بنيادي[1] التي انتقلت إلى جامعة أصفهان، والأخرى مَهتاب كرانه[2] التي اعتذرت عن الدراسة هذا الفصل.

بصقتُ بقايا التفاح عبثًا من النافذة، وراقبت للحظاتٍ السقوط الحُر للتُفاح في الفضاء. دق الهاتف. أغلقتُ النافذة؛ فانقطع صوت الفئران. رفعت السماعة. كانت سايه تريد أن تعرف ماذا يعني أمر الله لموسى بخلع نعليه، بعدما تجلّى في الوادي المقدس؛ هل يرمُز خلع النعلين لشيء مُعيّن؟ نظرت من خلف النافذة إلى البناية المرتفعة في مواجهتي. انطفأ أحد مصابيحها.

سألتها: «ما أهمية ذلك؟ في اعتقادي أن الأهم هو حادث الكلام نفسه؛ فموسى هو الإنسان الوحيد الذي سمع صوت الله».

---

(١) «شهرة» تعني: شهيرة، و«بنيادي» هو الشيء الأصلي أو الرئيس.

(٢) «مهتاب» هو ضوء القمر، و«كرانه» تعني: ضفاف أو شاطئ.

قالت: «لأن النعلين يُستخدما للسفر والرحيل، لذا أظن خلعهما إشارة إلى الوصول والوصال؛ أليس كذلك؟».

لففت سلك الهاتف بين أصابعي وجلست على المقعد. أجبت: «ربما».

لكن سايه كانت تُريدُ شيئًا أكثر من «ربما»؛ تريد أن أطمئنها على صحّة تفسيرها، ولكنني لم أستطع مساعدتها. على الأقل هذه الأيام؛ لا أستطيع. عندما لا أجد أي دليل مُقنِع لإثبات وجود الله أو إنكاره، ويطوّحني الشك بعُنفٍ مثل بندول الساعة؛ تارة إلى الإنكار وأخرى إلى الإيمان، فإن الكلام عن موضوع مثل: «كلام الله مع موسى»؛ يصيرُ مُملًا جدًا بالنسبة لي. لكن سايه ألحت مرة أخرى لأُسمِعها جوابًا أفضل. برقت في رأسي فكرة. قلت: «ربما كان علي رضا يعرف أكثر عن هذا الموضوع. أتريدين أن أسأله غدًا؟».

وافَقَت، وألقى كل منا تحية المساء للآخر، ووضعنا السماعتين. أبقيت يدي على السماعة لعدّة لحظات؛ لأني توقعت أن يدق الهاتف مرة أخرى، ولكنه لم يفعل. للحظةٍ نظرت إلى الطرف الآخر من الشارع؛ إلى البناية المقابلة. كانت كل نوافذها قد أمست مظلمة.

٦

استيقظتُ صباحًا على مكالمة من مهرداد؛ قال إنه يريد قضاء اليوم معي إن لم أمانع. فطلبت منه أن ينتظرني أمام منزله بعد نصف ساعة. وضعت الساعة وتمددت على السرير مرة أخرى، وحدقت في سقف الغرفة لدقيقة. كان شرخ رقيق قد قص طلاء زاوية السقف. نهضت بعد ذلك وتحممت، ثم هبطت الطوابق التسعة بالمصعد حتى وصلت للشارع. كان الأفق مُغطىً بالثلج، والهواء نقيًا جدًا. عندما ركبت السيارة نظرت في ساعتي. اليوم هو الثامن من شهر شباط.

بقي ثلاثة وسبعون يومًا بالتمام على موعد تسليم الأطروحة إلى المجلس العلمي المختص بمراجعتها. عندما انعطفت في زقاق نسترن الثالث؛ رأيت مهرداد وقد غرزت ساقاه في الثلج وهو ينتظرني، مُرتديًا ذات الملابس التي كان يرتديها في المطار. أول ما قاله بعدما استقلّ السيارة؛ إنه يريد أن يحظى بمعيتي ولا يزاحمني. أصرَّ على البقاء معي وأنا أُنهي أشغالي. فقلت ضاحكًا: «كل رفقة مزاحمة إلى حدٍ ما؛ أليس كذلك؟»، لكنه لم يضحك، وكأنه فكّر في ذلك مدة طويلة؛ بل قال: «ليست كذلك في البداية، لكنها شيئًا فشيئًا

تصيرُ مُزاحمة، بل وممانعة». ثم أضاف بابتسامةٍ باهتة: «*وهذه إحدى سمات الحب*»،[1] لكني لم أفهم مقصوده.

قصدنا مباشرة إلى مكتبي في مؤسسة البحوث الاجتماعية، وهي غرفة شمالية في الطابق السابع من بنايةٍ مكوّنة من تسعة عشر طابقًا. وعندما كنت أزيح ستائر النافذة؛ تفحص مهرداد جدران وباب الغرفة، وألقى نظرة على خارطة دوركايم[2] المعلقة على الحائط، وبعد ذلك حدّق في لوحة مُعلَّقة فوق رأسي، وهي عبارة عن قصيدة كتبتها، قبل عامين؛ بخط نستعليق غير متقن:

إني أتكلمُ عن نهاية الليل،
عن نهاية العتمة،
عن نهاية هذا الليل،
إن جئت إلى بيتي، اجلب لي، أيها الحنون؛
سراجًا،
ونافذة صغيرة؛ لأنظر منها،
إلى زحام الزقاق السعيد.[3]

جلس على مقعدٍ بقربي، ووقعت عيناه على صورة سايه التي أضعها تحت زجاج مكتبي.

- تبدو فتاةً بريئة، متى تنويان الزواج؟

---

(١) شطر لسُهراب سبهري؛ أحد أشهر الشُعراء الإيرانيين المعاصرين.

(٢) إميل دوركايم عالم اجتماع فرنسي (١٨٥٨-١٩١٧م)، وخارطته هي رسم توضيحي لنظريته الاجتماعيّة.

(٣) من قصيدة لأشهر شاعرة إيرانية معاصرة: فروغ فرُّخزاد.

أجبت، كالمعتاد؛ على سؤاله المتكرر المزعج: «عندما أنهي هذا المشروع؛ ربما بعد ثلاثة أشهر، وربما بعد أربعة، وربما أكثر. يرى والد سايه أنه لا يحق لي الكلام عن الزواج، إذا لم أنل درجتي العلميّة».

أزاح نظارته عن عينيه؛ وسأل: «أهي طالبة؟».

قلَّبت الأوراق على المكتب بحثًا عن قلم؛ وأجبت: «تدرُس لنيل الماجستير في الشريعة، وهي أيضًا مشغولة بكتابة أطروحتها».

- أخيرا عَثَرْتَ على فتاةٍ متدينة. كما تصورتك؛ لم تتغير خلال هذه السنوات التسع.

وجدت القلم في ثنايا التقويم الموجود على المكتب؛ وقلت ضاحكًا: «تصورك خطأ تمامًا؛ فسايه مُتدينة بالحسابات الفلكية التي تشتغل بها. وأنا أبعد تسع سنوات ضوئية عن يونس الذي عرفته قبل تسع سنوات».

نهض، واتجه للنافذة.

- ما الذي تتناوله أطروحتها؟

- «كلام الله مع موسى»، وصدقني؛ لم يكن الموضوع من اقتراحي.

أخرج علبة سجائر من جيب سترته الجلدية، وأشعل سيجارة. كان وجهه لا يزال في اتجاه النافذة.

- حسبما أتذكر؛ فقد اخترت أنت دراسة الفلسفة، قبل تسع سنوات؛ فقط لتُدافع عن حُرمة الدين، حسب زعمك؛ دفاعًا فلسفيًا.

نفخ دخان سيجارته وقال شيئًا غريبًا، بعد ذلك؛ صعقني دهشة. فقد سمعت ذات العبارة من علي رضا، على الهاتف؛ قبل عدّة أسابيع: «بنفس السهولة التي تَفتَحُ بها المفاتيحُ الأبوابَ؛ تقفلها أيضًا. كأن الفلسفة أغلقت الباب تمامًا».

دوّنت عنوان قاضي التحقيق على ورقةٍ صغيرةٍ؛ وسألته: «برأيك هل هو موجودٌ أصلًا؟». كانت عيناه تنظران إلى الأمام أكثر من الأسفل؛ إلى لوحات إعلانية مُعلّقة على البناية المقابلة.

- أتسأل عن الباب أم عن المفتاح؟
- أسأل عن الله.

استدار إلي، وحدَّق في عينيّ مُباشرةً كأنه رأى جانًا.

نهضت من مقعدي؛ وقلت: «أتعتقد أن الله موجود؟ هذا أكثر شيء أريد معرفته حاليًا. وهذا السؤال تفوق أهميته عندي تلك الأطروحة اللعينة، ودليل انتحار پارسا، وأشياء أخرى كثيرة. إن جواب هذا السؤال، في رأيي؛ سيُفسّرُ الكثير، وعدم الوصول إلى جواب؛ يجعلني أتيهُ في ظلامٍ دامسٍ إلى الأبد. موجود أم غير موجود؟». علت نبرة صوتي قليلًا، ولكني لم أكترث. صار الآن يقف في مواجهتي تمامًا.

سعل سُعالًا خفيفًا؛ وأجاب قائلًا: «لا أعلم».

انفجرت بصورة عفويّة؛ كأني لم أسمع ردّه: «ملايين البشر بدل أن يؤرِّقُهم هذا السؤال مقدار ذرة؛ يضعون برامج قد تدوم ألف سنة، لحيواتهم التي تدوم ستين أو سبعين عامًا. أنا أعجب كيف يمكن لإنسانٍ أن يعمل، ويتكلّم، ويأكل، ويتزوج، ويمشي في الأسواق، بل وأن يتنفس، ناهيك عن التخطيط طويل الأمد؛ دون أن يجد جوابًا قاطعًا ومُقنعًا لهذا السؤال. إن لم يكن الله موجودًا؛ فلماذا نحن موجودون؟ إن الاحتمال الرياضي للعثور على حياة على كوكبنا - كما تعرف خيرًا مني - أقرب إلى الصفر؛ أتفهم؟ صفر! ولكن هذا

الاحتمال القريب من الصفر تحقق؛ ونحن الآن موجودون. إن هذا الوجود، أو بعبارة أخرى تحقُّق الاحتمال القريب من الصفر؛ يعني وجود إرادة قاهرة مسئولة عن وجودنا. قد يكون هذا عين ما أزعج جوليا، وأكل روحي صُبح مساء مثل الجُذام. من زاوية أخرى؛ إذا كان الله موجودًا، فلماذا كل هذا العناء؟ كل هذا الشقاء والشر الذي يصدُر عن وجود المخلوقات؛ ما سببه؟ أين هي آثار ذلك القادر القدير؟ لماذا تضطرب الحياة إلى هذا الحد مُسببةً لنا كل هذا القدر من المشقة؟ أين هي اليد الحنون التي كلما نادوها؛ لا تمتد لمساعدة أحد؟ كل يوم تُداس حقوق ملايين البشر على هذه الأرض، وكلهم يطلبون العون؛ ولكن لا تقع معجزة واحدة. ولا واحدة. الظالمون يسمنون دومًا، والضعفاء في أصقاع العالم إما أن يصيروا ضحايا للفيضانات، أو تُزلزل الأرض وتبتلعهم، وإذا نجوا ينهشهم الفقر والجوع والمرض. أي شيء يدفع ثمنه كل هؤلاء الأطفال المشوهين ناقصي الخلقة؟ أي إثمٍ ارتكبوا حتى يُعانوا إلى آخر العمر، إذا عاشوا؛ العمى والشلل وضمور الأعضاء وآلاف العذابات الأخرى؟ لا بد أنك اطلعت على إحصاءات الوفيات بسبب المجاعة؟».

كانت أصابع يدي ترتعش بوضوح. فصرخ مهرداد مُجيبًا: «لا أعرف! كل ما أعرفه بهذا الخصوص وأتصور أنك تعرفه، أو تحاول معرفته؛ هو أننا لا نعرف. هذه هي أنبل إجابة، وأكثرها حيطة في الوقت نفسه؛ قد يستطيع الإنسان أن يأتي بها ردًا على هذا السؤال المخيف. هل لهذا الفضاء نهاية؟ وهل في مليارات المجرات الأخرى، حيث تحوي كل واحدة منها مليارات النجوم مثل شمسنا أو أكبر؛ ثمة حياة؟ هل توجد أنواع أخرى من الحياة ليست مبنية على الكربون؟ وهل في أعماق المحيطات، التي تغور لأكثر من عشرة كيلومترات ويخيم عليها ظلامٌ دامس؛ ثمة

موجود حي؟ جواب كل هذه الأسئلة ومئات الأسئلة مثلها، التي تُعتبر أيسر إجابة من سؤالك المخيف؛ هي إجابة واحدة: الجهل التام. هذا ما يُخبرنا به العلم. العلم الأكثر ثقة وفي الوقت نفسه الأكثر صدقًا؛ يُجيبُ بتواضُعٍ تامٍ: لا أعلم».

استحالت السيجارة بين أصابعه إلى رمادٍ بالكامل. شعُرتُ كأني تخففتُ من حملٍ ثقيل؛ فتنفّستُ بعُمقٍ، ووضعت عنوان قاضي التحقيق في جيب قميصي. أطفأ مهرداد عقب السيجارة في المنفضة، وخرجنا من غرفة مكتبي، ووقفنا في الممر ننتظرُ أمام المصعد.

قلت: «إن وجود مخلوقات في أعماق المحيطات أو عدمها، وكون الفضاء متناهيًا أو غير مُتناه، ووجود حياة على كواكب أخرى غير الأرض من عدمه؛ هذا كله لن يؤثر مثقال ذرة على حياتي، أما التحقّق من وجود الله فهو ضروريٌّ بالنسبة لي. إن كان الله موجودًا؛ فليس الموت بنهايةٍ لكُلِّ شيء، وفي هذه الحال أكون قد أقدمت على أكبر وأخطر مغامرة؛ إذا عشت طوال حياتي مُفترضًا عدم وجوده. إنه خطرٌ داهمٌ أستشعرُهُ حتى العظم».

انفتح باب المصعد؛ فولجناه. ثمة امرأة عجوز في المصعد تحمل سلّة مملوءة بالمشتريات اليومية، وتتكلم مع فتاة تقف إلى جوارها عن غلاء أسعار تذاكر الحافلة، وتشكو من وقوفها في الحافلة طول الطريق. كانت مستاءة بشدة من استمرار ارتفاع أسعار التذاكر، وعدم ازدياد أعداد الحافلات في المقابل. صعدنا إلى الطابق السابع عشر، حيث نزلت العجوز والفتاة. وعندما كان المصعد ينزل، سوَّى مهرداد شعره أمام مرآة المصعد؛ وسأل: «إن لم يكن الله موجودًا؛ فما هو مآل الأحياء؟».

- إن لم يكن الله موجودًا؛ فسيكون الموت نهاية كل شيء. وفي هذه الحال تصير نتيجة الحياة، مع فرضيّة وجود الله؛ تجنُّب كثير من الملذات، وهي خسارة كبيرة حقًا. فنحنُ نعيش مرة واحدة فقط.

انفتح باب المصعد في الطابق الأرضي؛ فاتجهنا للمرآب. وعندما ركبنا السيارة أشعل مهرداد سيجارة أخرى؛ وقال: «على كل حال، هذا سؤال سنعرف جوابه القطعي بعد الموت إن كان إيجابًا، وإن كان سلبًا، ولم يكن الله موجودًا؛ فلن نعرف جوابه أبدًا». نفث دخان سيجارته من النافذة؛ وأضاف: «لهذا أقول إنه سؤالٌ مُخيف». ثم أكمل بصوتٍ مبحوح: «تسمّي جوليا الكثير من هذه الأسئلة بالأسئلة المخيفة».

خرجتُ من الطريق السريع خلف شاحنة، وقدت سيارتي باتجاه محطة وقود إلى جانب الطريق، وبعد قليلٍ توقفنا خلف الشاحنة في زحام محطة الوقود. ضغط مهرداد زر مذياع السيارة؛ فبث المذياع نشرةً بآخر الأخبار العلمية:

«نجح اثنان من المختصّين في برمجيّات الحاسوب، من جامعة ستانفورد الأميركية؛ في كتابة برنامج بحث للإنترنت قادر على البحث خلال ثوان، ودون كتابة عنوان موقع؛ عن كل جريدة، دورية، وكالة أنباء، أو كتاب، ونقله إلى الشاشة للمطالعة. وحسب التقرير؛ فقد أمضى الشابان المتخصصان أربعة أشهر لكتابة هذا البرنامج، الذي سُمّي «ياهو Yahoo»؛ وحصل كل منهما على أجرٍ مائة وخمسين مليون دولار».

ابتسم مهرداد ابتسامةً جميلةً عندما انتهى الخبر؛ فتصوَّرتُ أن سببها هو المبلغ الفلكي الذي ناله المتخصصان، ولكن اتجاه نظراته جعلني أعدل عن ذلك الظنّ. كان مهرداد غارقًا في قراءة عبارة خُطَّت على الشاحنة الرابضة أمامنا. لم أعرف بالضبط إن كان بصرُه قد توقَّف عند الباب الصدئ لمؤخرة المقطورة؛ حيث كُتِبَ عليه بخطٍ رديء: *«الجحيم معك خيرٌ من الجنة بدونك، يا عديمة الوفاء»*، أو كان بصرُه مُعلَّقًا بعبارة: «يا هو»،[1] التي كتبت على واقي الطين المطاطي؛ المُنسَدِل خلف عجلات الشاحنة الخلفية، إذ ما زال يمكن قراءتها برغم الطين المتناثر عليها.

(١) تُستخدم لفظة «هو» في التقاليد الشعبية الإيرانية؛ للإشارة إلى الذات الإلهيّة.

٧

كانت مصاعد بناية المحكمة مُعطَّلة؛ فاضطررنا لارتقاء الدرجات المزدحمة إلى الطابق السادس. وفي كل طابقٍ نصل إليه؛ كان مهرداد يتريّث قليلًا ليلتقط أنفاسه.

عندما وصلت إلى الطابق الرابع رأيت مهردادَ، بين الحشود في باحة الطابق الثالث؛ وهو يصعد لاهثًا. كانت الحشود تتزاحَم ليس على الدرج فحسب، وإنما في الغرف، والممرات، وفناء المحكمة. كانت امرأة متوسطة العمر تسُب زوجها وقد أخذت بيدي ولديها، وشرطي يهبط الدرج برفقة شاب مصفود اليدين، وعجوزٌ تصعد الدرج ببطء شديد وشفتاها تُتمتمان بدُعاء. تُفتح أبواب غرف الممر وتُغلق باستمرار، وما من شخصٍ رأيتُه إلا وهو يتأبط ملفًا. إحدى العجائز سألت امرأةً مرقت بجوارها عن مكان غرفةٍ أو شخصٍ ما، لكن المرأة لم تنظر إليها أصلًا، واختفت بسرعة داخل إحدى الغرف. لمَ لمْ تنظر إليها؟ وقف أشخاص بلباس السجن منتظرين أمام باب إحدى الغُرف. ترى ماذا ينتظرون؟ رجلٌ يركُض مُسرعًا في الممر؛ فيصطدم بآخر، ولا يكترث أحدهما للآخر. ترى لمَ الرجل مُتعجِّل؟ وكل

هؤلاء الناس ماذا يريدون؟ وماذا يعتملُ في رؤوس هذه المخلوقات التي تمشي على قدمين، وتصعد الأدراج وتهبط كالمجانين؟

سمعت صوتًا مُرعبًا خلف رأسي؛ فُتح بابُ غرفةٍ، وخرج منه شرطيان مُمسكان بعضُديّ رجُلٍ يجُرَّانِهِ خارجًا. كان الرجل يُحاوِل التفلُّت وهُما يجُرَّانِهِ على الأرض جرًا، حتى صرخ بشكلٍ مُروِّع؛ فقال صوتٌ أنه قد حُكِمَ عليه بالإعدام. بحثت عن مهرداد في الحشد، ولكنني لم أعثر عليه؛ فألقيت نظرة أخرى على عنوان قاضي التحقيق، الذي كنت قد كتبته على قصاصة ورق. ويبدو أن المحكوم عليه بالإعدام كان يشعُر كأن حبل المشنقة يضيق حول عنقه، إذ راح يصرُخ من أعماقه؛ فابتعدْت خوفًا. ولكن ممَّ أخاف؟

كان مهرداد قد توقف وأشعل سيجارةً بحوزته. قصدت مكتب قاضي التحقيق في نهاية ممر الطابق السادس. جلس مهرداد على مقعدٍ حديدي في الممر، ريثما أتحدث مع قاضي التحقيق. ومع أني قد هاتفته أكثر من ثلاث مرات؛ مرت دقيقة حتى تذكر إشاراتي، فهو لا تربطه صلة بملف پارسا. قال أن القضية لم يكن لها شاكٍ معلوم؛ لذا فقد حُفظ الملف.

لم يكن يتذكر شيئًا عن الموضوع، وبعد إلحاحٍ شديد مني، ومساهمةً في العمل الثقافي، وخدمةً للعلم والبحث العلمي، وسائر التُرّهات الأخرى؛ رضي أن يضع ملف الدكتور پارسا تحت تصرفي لمدة ساعة واحدة؛ لأطلع عليه في الأرشيف، وذلك في حضور السيد محسن خان مسئول الأرشيف. أخذت الخطاب الموجَّه للأرشيف، وخرجت من غرفة القاضي وأنا أفكر إن كان محسن خان هو الاسم الأول لمسئول الأرشيف، أو اسم عائلته. لم

أجد مهرداد حيث تركته جالسًا على المقعد الحديدي؛ فبحثت عنه في غرفِ الممر غُرفةً غُرفة، ولكني لم أجده؛ فحدقت لدقائق في الحشد الذي يعبُر الممر بسرعة، لعلي أجده بينهم؛ ولكن بلا جدوى. فتشت عنه في دورات المياه، وفي الشرفة، وحتى في المصلًّى – برغم يقيني أنه لن يذهب إلى هناك – ولكن بلا أثر. وشيئًا فشيئًا ساورني القلق. كانت المصاعد لا تزال مُعطَّلة؛ فنزلت الدرج، وبحثت عن مهرداد بين الجموع التي كانت تتحرك بسرعة، ولكن بلا أدنى أثر.

عندما وصلت إلى فناء المحكمة؛ وقفت جانبًا لألتقط أنفاسي. ثمّة حشد في زاوية الفناء، يبدو كأنه اتشح بالسواد؛ قصدته فرأيت الرجل المحكوم عليه بالإعدام وسط حلقة من الناس والشرطة، كان هذه المرة يتوسل بدلًا من الصراخ، لكن لم ينفعه بكاؤه ولا نواحه كالمرأة التي فقدت زوجها. وجدت مهرداد بين الحشد؛ كان يمسح زجاج نظارته مُتأملًا الرجل المحكوم عليه بالإعدام.

وصلنا بعد عدّة دقائق إلى قبو المحكمة. كان مسئول الأرشيف شابًا ثلاثينيًا ظريفًا؛ قد تساقط معظم شعر رأسه، ويعرج قليلًا عند سيره. ظل يروح ويجيء عدَّة مرات بين رفوف ملأى بالملفات؛ حتى استخرج ملفًا مُمزقًا باهتًا للمتوفى، من إضبارةٍ كبيرة مُتهرئة وممتلئة ضعفي قُدرة استيعابها. وعندما أعطاني ملف پارسا؛ قال: «هذه صحيفة بأعمال المتوفى. جُعِلَ مثواه الجنة».

فقلت مازحًا: «أنا مُغسّل أموات، ولا علاقة لي بجنة الناس أو جحيمهم».
جلس على مقعدٍ خشبي.
- كلنا مُغسّلو أموات يا أخي، ولكن حتى المغسّلون يموتون أيضًا في نهاية المطاف.

جلست ومهرداد إلى طاولةٍ خشبيةٍ، وبدأت بتصفُّح الملف بسرعة. أشعل مهرداد سيجارة، وسأل مُحسن خان عن الرجل المحكوم عليه بالإعدام، الذي رأيناهُ قبل قليل. لم أُصغِ لحديثهما، لأني أردت الحصول على أقصى استفادة من الساعة التي سيكون فيها الملف تحت تصرُّفي. وأثناء انشغالي بنقل الملاحظات؛ قال مسؤول الأرشيف لمهرداد شيئًا استوقفني، وجعلني أُحدِّق فيه للحظة باستغراب. لا أدري ماذا كان سؤال مهرداد؛ ليُجيب محسن خان: «مُغسّلو الأموات لا يخافون الموتى؛ لكنّهم يخافون الموت». فسأله مهرداد: «ماذا عنك أنت؟ أتخشى الموت؟». ابتسم؛ وقال: «لعلك لا تصدِّق؛ لكن الموت يخاف مني، ولست أنا من يخافه». وبالطبع لم نصدق أنا ومهرداد كلامه.

عُدّت مرةً أخرى لتصفُّح الملف ذي الثلاثمئة والثلاث والأربعين صفحة، وقد ثُبتت فيه صورة لپارسا بورق مُقوى أصفر اللون. كان مُلخَّص تقرير قاضي التحقيق في أوائل الصفحات:

وصل الدكتور محسن پارسا، أستاذ الفيزياء في جامعات إيران؛ في حوالي الساعة السابعة والدقيقة الخمسين من مساء الأربعاء التاسع من شهر تشرين الأول لعام ألف

وتسعمئة وثلاثة وتسعين، إلى الطابق الثامن لبناية «نگين آبي»[1] التجارية المكوّنة من ستة وعشرين طابقًا، ورمى بنفسه من نافذة غرفةٍ مُطلةٍ على الشارع. هذه الغرفة هي مكتب مبيعات لشركة تُنتج نوعًا من مبيدات الحشرات المنزلية. وحسب إفادات الشهود، وتأكيد الطبيب الشرعي؛ فقد توفّي المذكور فورًا. ولم يكُن ثمّة أحد في المكتب، لحظة وقوع الحادث؛ سوى سكرتيرة المكتب المعروفة باسم السيدة «فرانك جوهر أصل»[2] ابنة منصور.

وكانت الصفحات التالية هي نص التحقيق مع «فرانك جوهر أصل»؛ وقد تم تفريغه من الشريط:

كانت الساعة السابعة مساءً عندما جاء السيد پارسا إلى المكتب. وقد طلب شراء عدد كبير من المبيدات الحشرية. هيأتُ له البضاعة التي طلبها، وأعطيته إياها. وصدقوني كانت هيئته وملابسه توحيان بالجنون؛ فقد كانتا لا تتناسبان مع الجو شديد البرودة، وعندما أتذكر ذلك يشرع جسدي بالارتجاف. قال لي پارسا: «الحشرات أيضًا لها الحق في الحياة؛ فلماذا علينا قتلها؟»؛ فأجبت مازحةً: «إذا كنت تحب الحشرات، فلماذا تشتري كل هذه المبيدات؟»، قال: «الحب ليس سببًا كافيًا لعدم القتل، وأنا لا أهدف إلى قتلها». بعد ذلك طلب مني أن أريه أحد المطبوعات - إن كان مُتوفرًا في المكتب - عن مبيدات الحشرات؛ فذهبت إلى الغرفة المجاورة لأجلب بعض المطبوعات، وعندما عُدت لم أجده. (هنا شرعت الشاهدة بالبكاء، وعندما هدأت أضافت). *عندما عدت لم أجد پارسا، ولكن حقيبته العسلية كانت على الطاولة؛ لهذا اعتقدت أنه قد قصد مكانًا ما،*

(١) «نگين» هو حجر الخاتم، و«آبي» تعني: أزرق. فاسم البناية يعني: «حجر الخاتم أزرق اللون».

(٢) «فرانك» تعني: فراشة، و«جوهر أصل» تعني: أصلها من الجواهر.

وسيعود بسرعة؛ فبقيت أنتظره عدّة دقائق ولكنه لم يرجع. ثم وقع بصري على النافذةِ المفتوحة؛ فقصدتها لأغلقها، وعندها سمعت ضجة آتية من الشارع، ولما نظرت؛ رأيت الناس يركضون نحو جثةٍ سقطت وسط الطريق (تشرع الشاهدة بالبكاء ثانية).

- سيدة جوهر حاولي التماسك؛ فكلامك مهم جدًا لكشف الحقيقة. هل قال السيد پارسا شيئًا عن حياته الخاصة في ذلك اليوم؟

- لا، لم يتكلم. فما أخبرتكم به هو كل حديث پارسا معي. تحدث عن مبيدات الحشرات فقط.

كان مهرداد مُنشغلًا بالحوار مع مسئول الأرشيف الظريف، وحين أصغيتُ لحديثهما برهة؛ تناهى لسمعي كلمات مُتفرقة عن الحرب، والرصاص، والقذائف، والدم، والتشرُّد، والخوف، والاستشهاد، والجنة؛ قبل أن أعود مرة أخرى لتأمُّل الملف. بناءً على تقرير الطبيب الشرعي، الذي أُدرج في الصفحة الثامنة والتسعين منه؛ فقد توفِّي القتيل على إثر نزيفٍ حادٍ في الدماغ، وقد أورد التقرير أيضًا تفاصيل أكثر، بعد أن تمت مُعاينة الجثة بدقّة:

كُسرت ساقا المتوفى، وعموده الفقري، وكتفه الأيسر، وعنقه، وقفصه الصدري؛ من شدة الاصطدام.

وبعد رفع البصمات عن الجثة ومسرح الحادث؛ نفى التقرير بصورةٍ قطعيةٍ أن يكون الحادث قد وقع بفعل فاعل، ويبدو أن هذا التقرير هو أساس تبرئة سكرتيرة مكتب مُبيدات الحشرات. أما المثير للاهتمام، فهي وجهة نظر أخصائي التحليل النفسي في الدائرة القضائيّة؛ الذي عُني بتحليل الأسباب العامة للانتحار:

تظهر حالات القتل أو الإقدام على الانتحار؛ عندما يستحيل التخلُّص من حالةٍ سلوكيةٍ شاذةٍ ومستعصية تأسر الإنسان، وقد يكون سبب الحالة أزمة معضلة عجز الشخص عن حلها، أو ظن أنه عاجز؛ ففي مثل تلك الظروف قد يختار ذهنه طريقين شاذين للخروج من الأزمة، أو لحل المشكلة: الأول أن يسعى لمحو المشكلة كلها، وتحدث غالبًا جريمة قتل في هذه الحالة إن لم يكن ثَم رادع إنساني، وفي الثاني لا يستطيع المرء، بناءً على حيثيات الموضوع؛ محو المشكلة كليًا، ولهذا يُقدم على محو حلها، ويحدُث الانتحار.

ضحك مهرداد ومحسن بصوت مرتفع؛ فرفعت رأسي تلقائيًا عساني أفهم عمّ يضحكون، ولكن دون جدوى. كانت المرة الأولى التي أرى فيها مهرداد يضحك هكذا، منذ عاد من أميركا.

تصفحت بقية الملف؛ فوجدت تعليقات المُحقِق في آخره. باعتقاده أن العمل الفكري الشاق، والعزوبة، ويأسًا مجهولًا؛ هو ما دفع پارسا للانتحار. لكن ما هذا «اليأس المجهول»؟ كانت كل عُقدة الأمر تتركّز في هذا السؤال: لماذا يئس پارسا؟ ولم يقدم المحقق أي توضيح حول ما جعل پارسا يائسًا؛ لم يجد ما يُقدِّمُه. أغلقت الملف، وبعثرت محتويات المظروف الملحق به على الطاولة: حافظة نقود، وسلسلة مفاتيح، وقلم مكسور من الأعلى، وشظايا زجاجية نتاج تهشُّم نظارة پارسا. هذه هي الأشياء التي كانت بحوزته وقت الحادث، إضافة إلى قصاصة ورقيةٍ دُوِّنَ عليها عنوان ما، وقد غطّتها الدماء السوداء. دونت العنوان في أوراقي، وعندما رفعت رأسي هالني ما رأيت؛ فقد خلع محسن خان ساقه الخشبية من أول الركبة، ووضعها على الطاولة، وكان مهرداد مُنصتًا بانتباهٍ شديدٍ لكلامه. قال محسن خان أنه عندما أصابت الشظية قدمه؛ رآها بأم عينه وهي تنفصل عن جسده، وتسقط على التراب.

عندما كنا نصعد الدرج؛ اختلست النظر إلى عيني مهرداد، وقد بللهما الدمع؛ فلعنت نفسي في سريرتي ألف مرة، لأني قبلت اصطحابه اليوم.

في ظل تردّي الوضع النفسي لمهرداد، فإن أفضل ما يعمله هو البقاء في المنزل حتى يعود إلى أميركا. ركبنا السيارة؛ فاتجهت بدافع الفضول إلى مكان انتحار پارسا. كان مهرداد لا يزال مُنطويًا على نفسه، فلم نتبادل الحديث. شغلت مذياع السيارة لأجذب انتباهه، الذي لابد وأن محسن خان، الفَكِه؛ قد استلبه. كان المذياع يُلقّن ربات البيوت المقادير الصحيحة لصُنع صلصة الطماطم.

أوقفت السيارة مُقابل البناء الحجري الأزرق، وترجّلنا إلى طرف الشارع الذي تلقّى جسد پارسا. اشترى مهرداد عدة سجائر من بائعٍ في الشارع، وأشعل إحداها. لفّ الشارع هواء بارد هبّ من الجهة الشماليّة؛ فوضعت يديَّ في جيبي معطفي اتقاءً للبرودة، وفي مكان أبعد قليلًا كان مهرداد يستدفئ قرب النار التي أشعلها بائع السجائر. وكان عدّة تلاميذ، انصرفوا لتوهم من المدرسة؛ يُطاردون قطةً بالحجارة. حدقت لبرهة بإسفلت الشارع الأسود، كأنما سجّل سبب انتحار پارسا! عبرت القطة بسرعة من أمامي، ولشدة خوفها من التلاميذ الذين يطاردونها؛ اختبأت داخل صندوق قمامة على جانب الطريق. كنت أتساءل من أعماق روحي: «هل الله موجود؟»، صاح بي بائع السجائر من زاوية الشارع البعيدة: «هل فقدت شيئا يا سيدي؟».

٨

أعدت مهرداد إلى بيته، ووصلت إلى شقتي عند أذان المغرب. عندما فتحت الباب سقطت من بين دفّتيه ورقة؛ كانت رسالة من مدينة جيرفت. كنت مُسترخيًا على الأريكة حينما دق الهاتف. أرادت سايه أن تعرف هل سنحت لي الفرصة لزيارة علي رضا، للإجابة عن سؤالها؛ فأجبتها بأني شُغلت في المحكمة، ووعدت بالإجابة عن سؤالها نهاية الأسبوع. لم تعترض سايه، ولم تتفوه ببنت شفة؛ فوضع كلانا السماعة. خلال العامين الماضيين، اللذين عقدت فيهما قراني على سايه؛ لم تعترض أبدًا، وإذا كان ثمّ عجلة من أجل الزواج؛ فبسبب إلحاح أهلها. لماذا لم تعترض سايه على أي شيء؟ ولم تتردد في أي شيء؟ كان كل شيء عند سايه كالصخر، مُحكمًا وغير قابلٍ للشك؛ إيمانها بأني أفضل رجل في حياتها، وأني سأُسعِدها حتى بعد مرور أعوام وإنجابنا درزينة من الأطفال صغارًا وكبارًا؛ إنه كإيمانها بأن موسى أخرج كفّه من بين ثنايا قميصه بيضاء من غير سوء، أو إيمانها بأن الله تجلَّى يومًا على جبل الطور. ليت لي ذرة من يقين سايه. حتى حارس هذه البناية، والكناس، والفاكهي في أول الشارع، ووالد سايه المليونير، وآلاف آخرون يعيشون في يقين أحسدهم عليه دومًا. من أين أتوا بيقينهم؟ أمن الجهل؟ إذا كان عدم المعرفة وعدم

التفكير في ماهية الخالق يجلب يقينًا كهذا؛ فبدوري ألعن كل معرفة من ذلك النوع المضني. فتحت الرسالة:

مرحبًا أخي يونس؛ آمل أن تكون صحتك جيدة. نحن جميعًا بخير. صحة أمي فقط ليست على ما يُرام؛ فصدرها ملتهب، وتسعل بشكلٍ دائم، وقدمها التي كانت تؤلمها صارت مثل الحجر، كما صارت الثانية عاجزة عن الحركة. أخبرتني ألا أرسل لك بما يحدُث حتى يمكنك التركيز على دراستك وأبحاثك؛ ولكن إذا لم أخبرك بهذه الأشياء، فلمن أقولها؟ الأسبوع الماضي، وصف الطبيب لأمي أدوية لم نجدها عندنا في جيرفت. أرفقت برسالتي نسخة من تذكرة الطبيب، فإذا وجدتها في طهران؛ أرسلها لنا بالبريد. والأمر الثاني أنه قد زارنا أستاذ أدب، قبل عدّة أيام؛ ليخطبني. لكننا قررنا تأجيل الموضوع لحين حضورك في العيد؛ حتى تكلمه ونعرف رأيك، إلى اللقاء.

أختك مونس.

وضعت الرسالة على الطاولة العسلية بجوار الهاتف، واستلقيت على الأريكة. ومرة أخرى وقع بصري على الشق في زاوية السقف. تقلبت وأدرت مفتاح المذياع، وبعد موسيقى قصيرة؛ بدأ برنامج قصص الأطفال الليلي. أمست جفوني ثقيلة. لقد اشتقت لأمي ومونس. كانت راوية القصة تُلقي التحيّة على مُستمعيها من الأطفال، وكنت أفكر لو أن پارسا لم يُلقِ بنفسه عبثًا، على إثر حالة الجنون الآنية؛ من تلك البناية اللعينة، ماذا كان ليحصُل؟ كانت القصة تدور حول صداقة عصفور صغير ودودة قز، يعيشان معًا على شجرة توت. سألت نفسي: «ماذا يحدث إذا ماتت أمي؟»، قالت الراوية: *«كانت الدودة تريد الطيران مثل عصفور ولكنها لا تستطيع، وفي أحد الأيام حملها العصفور*

بمنقاره الصغير الحاد وطار؛ لكن منقار العصفور جرح جسم دودة القز الناعم». ماذا يحدث إذا لم أُنْهِ أطروحة الدكتوراه في موعدها؟ *«قالت الدودة للعصفور إنها ترغب في الطيران بنفسها، لا أن يحملها هو في طيرانه».* ماذا لو لم يُنشر لي كتابٌ؟ ماذا لو لم أشتهر؟ *«مرت عدّة أيام افتقد فيها العصفور الصغير صديقته دودة القز، وبرغم بحثه عنها في كل أرجاء الغابة؛ إلا أنه لم يجدها».* يجب التذكُّر أن عليّ زيارة علي رضا، وسؤاله عمّا تريد سايه معرفته. *«وفي أحد الأيام حلَّقت فراشة جميلة واقتربت أكثر فأكثر، ثم حطّت بجوار العصفور الصغير على غصن شجرة التوت. سلمت الفراشة على العصفور الصغير؛ وسألته: أتعرفني؟»*، لماذا اختار پارسا مكتب بيع مبيدات الحشرات لينتحر؟ *«أجاب العصفور الصغير: لا؛ لم أرك قبل الآن».* يجب المرور على منزل پارسا؛ ربما عثرت على طرف الخيط هناك. *«قالت الفراشة: كيف لا تعرفني؟ أنا صديقتك دودة القز عينها، وكنت أعيش في الشرنقة التي نسجتها حول نفسي؛ ثم تحولت إلى فراشة».* هل الله موجود؟ أم أنه ليس موجودًا؟ دق الهاتف، فرفعت السماعة بلا رغبة في الإجابة.

- نعم؟
- السيد فردوس؟ يونس فردوس؟
- أنا هو؛ تفضل.
- أنا كيوان بايرام،[1] وكنت زميل صف للمرحوم پارسا في المرحلة الابتدائية.

عندما سمعت اسم پارسا؛ نهضت بلا وعي عن الأريكة. كان المذياع ما زال يعمل.

---

(١) «كيوان» هو كوكب زُحل، و«بايرام» لفظة تركية تعني: العيد.

- قلت إنك كنت زميل صف لپارسا؟
- نعم ياسيدي. بالطبع لم أكن طالبًا مُجدًا مثله؛ لذلك لم أحقق الكثير في دراستي. رأيت إعلانك في الصحيفة. آخر مرة رأيت فيها مُحسنًا كانت قبل انتحاره بعدّة ساعات، وعندما قرأت خبر انتحاره في الصحف؛ قلت لزوجتي إننا التقينا قبل انتحاره مباشرة. في ذلك اليوم تحدّثنا سويًا، وقلنا أشياء ربما تنفعك.

دوَّنت عنوان عمله، واتفقنا على اللقاء في اليوم التالي. كان المذياع يبُث أنباءً عن مجازر رواندا وأفغانستان والبوسنة وجنوب لبنان. وكنت لا أزال جالسًا على الأريكة؛ موليًا ظهري للنافذة. وقعت عيناي على الساعة المعطّلة فوق المنضدة، والتي تُشيرُ إلى توقيتٍ خاطئ. قال المذياع: «*سيبرُد الطقس غدًا درجتين*».

وصلت إلى المسلخ في التاسعة صباحًا؛ للقاء كيوان بايرام. كان مسئول تفتيش الحيوانات التي تُذبح. لم يكن ثمّة داعٍ للبحث والسؤال؛ ميَّزتُه عن بُعد... كان يرتدي معطفًا أبيض، ويطبع الختم البيطري على الذبائح. كان المكان مُمتلئًا برائحة الدم والعفن، وكان ثُغاء كل حيوانٍ يُذبح يستمر لفترة. كان المكان يلفّه الظلام بشكلٍ كاملٍ تقريبًا، وقد ارتدى الجزارون أحذيةً طويلة وأثوابًا سوداء واقية، سميكة ومصنوعة من البلاستيك، والدم يقطُر من أطرافها بشكلٍ دائم. قدمت نفسي لبايرام. أخرج سيجارته من فمه، واعتذر كونه لم يستطع لقائي خارج المسلخ. كان شابًا ثلاثينيًا عريض المنكبين، أشقر الشعر. وقفنا وسط الممر بجانب مجرى يحمل الدماء إلى خارج

المسلخ. قال إنه التقى پارسا قبل انتحاره بثلاث ساعات في سينما «شهر قصة»،[1] وذلك قبل مشاهدة فيلم «أغرانديسمان».

- سأل عن أحوالنا، وتعرَّف إلى زوجتي.

- ماذا أيضًا؟ هل تحدثتما في شيء خاص؟ ألم يقُل پارسا شيئًا عن حياته الخاصّة؟

جلبوا بقرة، من نهاية المسلخ إلى الممر؛ في ضجةٍ كبيرة. بدت البقرة نصف متوحشة، وقد كبّلها عدّة أشخاص بالحبال. أخرج بايرام سيجارته من زاوية فمه، وختم ذبيحة.

- لا، ولكني قلت له مازحًا في كناية لا تخفى: «ماذا حدث لتتذكر السينما يا دكتور؟ ثمّة مسافة كبيرة بين السينما والجامعة».

دارت البقرة حول نفسها، وهاجمت برأسها أحد الرجال الذين يُطوقونها.

- وصلت رائحة الدم إلى أنفها؛ فرائحة دم البقر تهيجها.

- ماذا قال الدكتور؟

- قال مُمازحًا: «لم أكن أعتقد أن السينما تستطيع كل ذلك الهراء»؛ فسألته: «أي هُراء؟»، فأجاب پارسا: «حل المُعادلات المعقّدة»، أو شيء من هذا القبيل. لا أتذكر كلماته على وجه الدقّة، ولكن ما أتذكره جيدًا أن زوجتي تعجبت كثيرًا من كلامه. كان هذا كل شيء. لا أعرف هل ساعدتك أم ...

---

(١) «شهر قصة» تعني: مدينة القصة. وكثير من دور السينما الإيرانية تحمل هذا الاسم.

لم أعد أسمع شيئًا، لكني ظللت أُحدِّق في ظُلمة المسلخ، التي تُظهر الأشياء وهي تتحرَّك. كأن أشخاصًا قد انحنوا على جسمٍ كبيرٍ ليمنعوه من الحركة. انبعثت أصواتٌ غريبةٌ من الظلمة؛ أصوات كعويلِ امرأةٍ يجرونها من شعرها، ثم تحوَّل الصوت إلى شخيرٍ مُمتدّ بلا نهاية، وفجأة امتلأ المجرى تحت أقدامنا بالدم الحار.

٩

الساعة الرابعة بعد الظهر؛ أمضيت عدة ساعات مُتسكعًا في أزقة ناصر خسرو، بحثًا عن أدوية أمي. يعُجُّ المكان بالمهربين، الذين أخفوا الأدوية النادرة في ظُلمة مستودعاتهم. يقول أحدهم: «قسمًا بالرسول ليس عندي ما تبحث عنه، ولن تجده؛ فلا تبحث بلا طائل». والثاني: «إذا وجدت هذه الأدوية لدى أيٍّ من التُجَّار هنا؛ فسيبيعك إياها بثمنٍ يفوق دية أبيه». والثالث: «ربما تجدها عند ياقوت الميدسان». وياقوت الميدسان: «ليس عندي منها الآن؛ بعتها توًّا لامرأة كانت تسفح دموع التماسيح. اذهب إلى جمشيد جور؛[1] ربما تجدها عنده». لم يستطع جمشيد تدبيرها مع الأسف، ولكنه أعطاني عنوان الدكتور يعقوب الكحولي، وأكد عليَّ ألاّ أخبره بأنه هو من أرسلني، وأن داوود خان[2] هو من أرسلني إليه. عثرت على يعقوب في سرداب مخزن بيع إطارات سيارات، وهو يتسامر مع عدة أشخاص. عرَّفتُهُ بنفسي، وأعطيته تذكرة الطبيب، وأثناء نظره فيها؛ قال: «كل واحدةٍ خمسمائة وتسعون تومانًا».

(١) تعني: ملك عظيم، والقصد أنه يستطيع تدبير أي شيء.

(٢) «خان»: لقب احترام للرجل مثل «بك».

- كل علبة؟

قال: «كلا؛ كل صندوق! كل حبّة بالطبع، جُعلت فداك. هذا سعر الواحدة، وأنا في خدمتك. فقيمة العلبتين منه أربعة عشر ألفًا ومائة وستون تومانًا. وتكرّموا بسداد المائة وستين تومانًا أولًا».

عند الغروب؛ كنت قد نجحت في الحصول على ثلاثة من الأدوية الخمسة، وأرسلتها إلى جيرفت بالبريد. عندما وصلت إلى البيت كان الصداع لا يزال يسكُن رأسي من ياقوت الميدسان، وجمشيد جور، والدكتور يعقوب الكحولي، وناصر خسرو القبادياني،[1] وكل من التقيتهم. أضع رأسي تحت صنبور المياه لأنتعش قليلًا. كان الماء ينصب على رأسي، وأنا أتساءل لا إراديًا: «لم كل هذه الأدوية؟ لماذا يمرض الناس بهذا القدر؟». دق الهاتف؛ فأخرجت رأسي من تحت الصنبور، وقد تبلل كل قميصي. أركض إلى الطاولة العسليّة حيث وُضع الهاتف في زاوية الصالة، وأرفع السماعة؛ كان علي رضا. قال إن صحة أحد أصدقائه مُعتلّة، ويجب اصطحابه إلى المستشفى، لكن سيارته «الفيات» في التصليح، ويسألني أن أُعيره سيارتي إذا كنت لا أحتاجها. أجيبه أني وسيارتي حاضران لمساعدة المريض.

بعد عدّة دقائق؛ كنتُ في الشارع المؤدي إلى بيت علي رضا. فكرت في الطريق أن أطرح عليه سؤال سايه وسؤالي، الذي داهمني تحت الصنبور. بالطبع أنا أسأل عليًا بشكلٍ دائم؛ خصوصًا تلك الأسئلة التي ليس لدي

---

(١) رحالة وشاعر من بلخ (١٠٠٣- ١٠٨٨م)؛ إسماعيلي المذهب، ومن أقطاب الأدب الفارسي. حجّ البيت الحرام في مكة، وزار سورية، وفلسطين، ومصر. وقد دوّن أخبار رحلاته في كتابه القيّم: «سفرنامه». له «ديوان» و«سعادت نامه»، وفيهما يُعبّر عن آرائه الدينية شعرًا.

أجوبة لها، أو تصعُب عليَّ إجابتها. وغالبًا لا تُقنعني أجوبته، لكن إجاباته لأسئلتي تطوي أشياءَ أحب جدًا الاستماع إليها. ربما لهذا لا أستمتع بالحوار مع أي إنسانٍ، مثل استمتاعي بالحديث إلى علي رضا. في الحقيقة؛ كان سؤال علي مُجرَّد ذريعة لجره إلى الكلام. فكلامه موزونٌ ومحسوب. هو أعزب، ويعيش مع أمه وأخته الصغيرة في شقة مساحتها مائة وعشرون مترًا مُربعًا. وبرغم أن عدّة مؤسساتٍ أكاديمية قد دعته لتدريس مادة الحاسوب، لكنه فضّل العمل كمدير مؤسسةٍ حكوميةٍ صغيرةٍ تُعنى بالأعمال الخيرية.

كان ينتظرني مُتكئًا على شجرةٍ، وهو يرتدي بِنطالًا غامقًا، وقميصًا فاتحًا تحت جاكتة زيتونية اللون. ركب في السيارة.

- مرحبًا يا يونس، أأنت بخير؟

ضحكت ولم أجب بشيء. أعطاني عنوان بيت صديقه منصور، وسأل مرة أخرى: «أأنت بخير؟».

كانت الريح في الخارج تتلاعب بالأشجار. نحن في أواسط شهر شباط، وقد أصبح الجو باردًا. شرع رذاذ المطر بالتقاطُر على زجاج السيارة. أجبتُ بأني لم أكن بحالٍ أسوأ، في أي وقتٍ مضى؛ مما أنا عليه الآن، ثم سألت بدون أي مقدمات: «لماذا ابتُلي الناس بكل هذه الأمراض؟ من أنواع الصداع، وأمراض العيون، مثل بُعد وقصر النظر وعمى الألوان والماء الأبيض والأستكماتزم؛ إلى أمراض القلب المتنوِّعة، مثل الخفقان وتضخُّم القلب أو ضيق صماماته. ومن حصى الكلى والمثانة، والعقم، والصرع، والنقرس، والتهاب السحايا، والجدري، والتهاب اللوزتين، والحصبة، والحمى القرمزية، والربو. وصولًا للأنواع المختلفة من الأمراض

والاختلالات الوراثية، مثل العمى، والحوَل، والصمم، والشلل، واختلال النطق، والتهاب الكبد الفيروسي، وأمراض الدم، مثل الهيموفيليا واللوكيميا والتلاسيميا. ومن أنواع الاضطرابات الذهنيّة والتخلف العقلي، وقرحة المعدة والاثنى عشر والأمعاء، والأمراض الجرثومية، والدوالي، والدفتيريا، والتيفوس، والروماتزم، إلى الانزلاق الغضروفي، والشلل الرعاش، وداء السكري، وتصلب الشرايين والسكتة الدماغية و... آخ، كثيرةٌ هي الأمراض!».

شغّلت ماسحتي زجاج السيارة لتُزيحا قطرات المطر. كان علي رضا يُحدِّق من النافذة في المتاجر المغلقة.

- كل شخصٍ ذاق عددًا من هذه الأمراض قبل موته. فأمي تُعاني من الدوالي وداء السكري منذ سنوات، وسايه مُصابة بخفقان القلب، ووالدها يُعاني قرحة الاثنى عشر، وأمها التهاب حُفُر عظام الجبهة المزمن، وقد ابتُلي أبي قبل وفاته بالشلل الرعّاش. لا أعتقد أن أي مخلوق ابتُلي بهذا القدر من الأمراض مثل الإنسان. يشغلني دومًا سؤال: لماذا لا تمرض الحيوانات بهذا القدر؟

تمتم علي رضا بشيءٍ، لكني لم أسمعه. وبعد لحظاتٍ نظر إليَّ بإمعان؛ وقال بابتسامة باهتة: «من أين لك معرفة أسماء كل هذه الملائكة؟»؛ يقصد الأمراض التي ذكرتها واحدًا تلو الآخر. قلتُ أنها قد تكون من الملائكة؛ لكنها ملائكة عذاب.

اشتد المطر، وكان ضوء مصابيح السيارات المقابلة يُزعجني. صَمَتَ علي لدقيقة؛ ثم قال: «وما الفرق؟ كل الملائكة خيّرة؛ ملائكة الرحمة وملائكة العذاب سواء».

برقت السماء عدّة مرات. سألت عبثًا: «هل ثمة ملكان يجلسان على كتفي، ويسجِّلان أعمالي على لوح؟ أتؤمن حقًا بمثل هذه الأمور؟».

اتكأ علي رضا على المقعد؛ وقال: «أعرف أُناسًا يستشعرون وزن هذين الملكين على أكتافهم، وأعرف آخرين يُميِّزون رائحة الملائكة، ويسمعون خفق أجنحتهم دومًا، لكن هذه الأشياء ليست مهمة جدًا؛ فالمهم هو...».

اختنقت كلماته؛ كأنما خنقتها العبرات، فلم يُضف شيئًا. أعرف جيدًا أنني ينبغي ألاّ أسترسل في الحديث، في مثل هذه الأوقات.

وصلنا إلى بيت منصور. ولج علي منزل صديقه؛ وخرج بعد عدّة دقائق يحمل شابًا هزيلًا جدًا بين ذراعيه. وضعه في المقعد الخلفي للسيارة، وجلس إلى جواره؛ وقال: «أسرع».

يبدو منصور كأنه فاقدٌ للوعي تمامًا. اشتد المطر حتى لم أعد أرى شيئًا تقريبًا. نظرت إلى المقعد الخلفي في المرآة، كان علي رضا يضع رأسه على صدر منصور؛ ليسمع ضربات قلبه. انعطفت إلى طريقٍ صاعدٍ بزاوية حادّة. شددت عصا السُرعة لأصعد الطريق. بعد قليل، وعندما توقف المطر؛ فتحت زجاج نافذتي، وفجأة فاحت رائحة ياسمينٍ أبيض زكيّة في السيارة، إلاّ أن جانبي الشارع كانا يغُصّانِ بأشجار الحَور، والأبنية المرتفعة، وأبواب المتاجر المغلقة، والمتشردين الذين يتوسّدون العراء؛ وما من ياسمين في الأفق.

١٠

عندما قال طبيب الإسعاف الشاب أن منصور قد توفي قبل عشر دقائق؛ انحنى علي رضا فوق جسد منصور، ودفن وجهه بين يديه الميتتين. ارتج كتفاه ثم تحررت عبراته، التي يبدو أنه قد حبسها طويلًا. كتب الطبيب الشاب سبب الوفاة: السكتة القلبية. وقَّع عليٌّ عدّة وثائق، وبمساعدة ممرضةٍ وضعا منصور على نقالة، وأخذته الممرضة إلى ثلاجة الموتى.

كانت الساعة الثانية فجرًا؛ حين نظرت إلى الطريق من نافذة قسم الإسعاف. امرأة تركُض مُسرعةً إلى كشك الهاتف العمومي. فكَّرتُ؛ أين منصور الآن؟ كنت قد سمعت اسم منصور عدّة مرات من علي رضا، وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أراه فيها. خلا قسم الإسعاف؛ فلم يبق فيه أحدٌ غيري. تمشّيت في ممرات المستشفى لا ألوي على شيء، وعبرت قسم الجراحة ثم صعدت الدرج. فتحت بابًا زُجاجيًا كبيرًا كُتب عليه: «الأمراض النفسية والعصبية»؛ ودخلت. كان هناك شخصان جالسان على مقعدٍ معدنيٍّ في الممر، يرتديان لباس المرضى، ويتحدثان. أحدهما رجلٌ عجوزٌ يعتمرُ طاقيةً منسوجةً كُحلية اللون، وقد أسدلها على أذنيه. كان العجوز يُخاطِب الجالس إلى جواره، ويبدو كأن أحدهما لا يسمع الآخر. يهزّ العجوز رأسه

باستمرار، أعلى وأسفل؛ ويقول: «... أظن أننا كنّا في الشارع؛ عندما سألتها: وماذا عني؟ قلت لها: أنتِ تُحبين السبانخ أكثر مني. أتعرف ماذا فَعَلَتْ؟ ركضت إلى المطبخ وأخرجت سكينًا؛ وصرخت: اخرس! اخرس! اخرس! إن لم تخرس فسوف أُخرِسُكَ بهذه السكّين».

كان جليسه متوسط العمر، يضع نظارة سميكة جدًا، ويقلّد أداء من يتكلم في الهاتف؛ واضعًا إبهام يده اليمنى في أذنه، والخنصر أمام فمه: «نعم يا سيدي. أكيد يا سيدي! كما تأمرون. أنا؟ أنا كلب؛ من أكون أنا يا سيدي؟ أنا أفديك يا سيدي؛ سلمتم من كل سوء. خسئت الساعة إذ تكون الثالثة والنصف يا سيدي. الساعة طوع أمركم يا سيدي؛ تكون كما تأمرون. أمرنا الزجاج ألاّ يُظهر ما في الجهة الأخرى. ولكن ماذا إن فعل يا سيدي؟ سنكسر رقابه بحجارةٍ يا سيدي. لقد هدّدنا الديكة طبقًا لأوامركم، وأغرينا الديكة الأخرى لئلا تصيح صباحًا. سمحنا لها بالصياح قبل الظهر كما تُريد، ولو صاحت حتى تخرج أرواحها من مناقيرها. ولقد تقرر أيضًا الإذن بنباح الكلاب، طبقًا لأوامركم؛ في النهار وأن تخرس في الليل مثل الأطفال، وتنام. واجهات المتاجر يا سيدي؟ لقد وضعنا كل شيء من حليب الناقة إلى الروح الإنساني».

- قالت: «أطفيء المدفأة، وازدرد دواءك». قلتُ: «إن الجو بارد؛ فلن أطفيء المدفأة، ولكن قولي أنتِ شيئًا. فقط قولي لي أنك تحبينني؛ عند ذلك سأبتلع مائة حبة دواء إن شئت. سأبتلع حبوبًا منومة حتى أنام مائة عام أو ألف عام». أتعرف ماذا قالت؟ قالت: «اغرُب عن وجهي... اذهب إلى الجحيم».

- أمرت مُبارك بتلميع زجاج الواجهة جيدًا بالمنديل. نحن أوفياء يا سيدي. نُقبِّلُ الأيدي يا سيدي. في الصباح، إذا زقزقت العصافير وأزعجت نومكم؛ فسوف نستأصل حناجرها يا سيدي. لا تشغلوا بالكم بهذا الشأن أبدًا يا سيدي. لقد أمرنا كل أشجار الجيران، أن تُظلل فناءنا من الآن، وقد أمرنا أعمدة الكهرباء أن تحترم ذلك وتحفظه. وقد تقرر حضور كل القطط يوم السبت إلى الإيوان؛ لتركع لعظمتكم يا سيدي.

- قلت لها إن يديَّ فارغتان؛ انظري! لكن عديمة الوفاء لم تكبد نفسها عناء النظر. ذهبتْ وجلستْ على حافة الحوض، ورمت بإحدى سمكاته الحمراء للقطة.

عندما أنهى العجوز هذه الجملة؛ شرع في البكاء بصوتٍ مُرتفع. فأقبلت ممرضة، اجتذبها صوت بكاء العجوز من آخر الصالة؛ بكوب ماء. وعندما لمح الرجلُ ذو النظارة الممرضةَ؛ صمت. أعطت الممرضة حبة دواء لكلٍ منهما، واصطحبتهما إلى غرفتيهما. كان الرجل ذو النظارة لا يزال مُبقيًا يده على شكل سماعة هاتف؛ ومع ابتعاده أخذ يصرُخ: «هذا ذنب صراصير الليل اللعينة، التي لا تكُفّ عن الصرصرة المستمرَّة من أول الليل حتى السحر؛ يا سيدي. يجب أن تُرمى بالمبيد. ينبغي قتلها ألف مرة وحرقها بعد ذلك أيضًا يا سيدي ...».

بدأ مفعول الحبة يظهر، فلم يستطع الرجل، بين النوم واليقظة؛ أن يلفظ الكلمات بصورة صحيحة؛ فأخذ يُردد بلهجة متقطعة غلب عليها النعاس: «إإ إن لـ لـ لم يقض عـ عـ عليها؛ فلن يسـ سـ تطيع أحد أن يـ يـ ينام مرتاحًا من صو صو صوتها يا يا سيدي».

الساعة الآن الرابعة صباحًا، ولا زلت أفكر في الرجلين اللذين رأيتهما في قسم الأمراض النفسية. قصدنا السيارة. كانت عيناي تحترقان طلبًا للنوم، فأطلب من علي رضا قيادة السيارة. أركب إلى جواره، وأغيِّر وضع المقعد لأنام شبه مُمَدَّد. يتحدث علي رضا عن الجبهة، ومضيق شزابه، وعن خندقٍ محفورٍ على شكل قناة ملتوية؛ قناة طويلة وضيقة كمقبرةٍ جماعية. تحدث عن قذائف المدفعية والهاون والآر بي جيه، التي كانت تُمطرهم من الصباح إلى المساء. تحدث عن أخاديد القناة التي كانوا يستعملونها كمحاريب. وتحدث عن القتلى. القتلى الكثيرين الذين كانوا يفقدونهم صُبح مساء في القناة. تحدث عن رائحة الدم التي كانوا يتنفّسونها حتى ألفوها أكثر مما ألفوا اللوبيا المعلبة. تحدث عن يومٍ سقطت فيه قذيفة في أحد أخاديد القناة، وقت الظهر؛ فركض عدَّة مئات من الأمتار مُسرعًا في مسارٍ ملتوٍ داخل القناة، ورأى منصور في المحراب مُصابًا بشظية في النخاع الشوكي، وقد اتكأ على الجدار الترابي للقناة من شدة الوهن.

صمت علي رضا للحظات؛ ثم قال: «عندما صعدت إلى منزله لأصحبه إلى المستشفى؛ قالت لي أمه إن منصور كان يشاهد فيلمًا وثائقيًا عن الحرب في التلفاز، وقد تهيَّج بسبب الفيلم».

أنزلت زجاج النافذة؛ فهبّ هواءٌ بارد إلى داخل السيارة.

أضاف علي رضا: «كان الأطباء قد حذرونا من مشاهدته لأفلامٍ كهذه، وقالوا إنها بمثابة سم قاتل بالنسبة له».

أخرجت يدي من النافذة. لقد توقف المطر نهائيًا. كانت عيناي مُغمضتين وأنا بين النوم واليقظة، وفجأة سطع نورٌ قوي كإضاءة مصابيح الشاحنات في عينيّ، وانتظرت؛ فلم أسمع صوت شاحنة. فتحت عينيَّ. ما من مركبات أخرى على الطريق. مسح علي رضا عينيه بظهر يديه، ونظر إليّ مُبتسمًا. هل حدث شيء؟!

١١

استيقظت من النوم في العاشرة صباحًا، وكانت حوادث ليلة أمس تضطرب في عقلي مثل كابوس. عندما أوصلني عليّ إلى شقتي في الصباح الباكر؛ تركتُ له سيارتي ليستخدمها في جنازة منصور. وحين وصلت إلى المطبخ؛ دقّ جرس الباب. كانت سايه ترتدي عباءة سوداء من قماش الكريشة اللطيف. انزلقت العباءة من على رأسها إلى كتفيها، عندما جلست على المقعد؛ فبدت أجمل من ذي قبل. كانت لم تتناول طعام الفطور بعد. وعندما قصدت الحمام؛ سألتني: «ما هي أخبار أطروحتك؟»، ثم قالت أشياءً حال صوت صنبور المياه دون تبيُّني لها بدقة. أغلقتُ الصنبور، وعندما كنت أنظف أسناني؛ قصدت الصالة لأسمعها بوضوح. أخرجَتْ كتابًا صغيرًا، طباعته حجرية؛ من حقيبتها، وبدأت بقراءة أحد حوارات الله مع موسى:

«يا ابن عمران! عندما يُناديني عبدٌ؛ أسمعه كأن ليس لي عبد غيره. لكن عبدي، ويا للعجب؛ يُنادي الكل كأنهم آلهته، ولا يُناديني أنا».

ابتسمتُ وعدت إلى حوض الاغتسال، وغسلت وجهي بالماء والصابون، ثم أخذت المنشفة إلى الصالة، وجلست أمام سايه وظهري إلى النافذة. كان

النور يُشّعُ من النافذة وينعكس على وجه سايه؛ فيُضيئه. جففت وجهي بالمنشفة، وحدّقت في سايه، التي كانت تبحث بين أوراقها عن شيء ما. ثم شرعت بالقراءة من ورقة صغيرة:

«تخيّل أنك وزوجتك الحُبلى قد ضللتما الطريق في ظلمة الصحراء، في ليلةٍ شتويةٍ باردة. ليلة غاب قمرها، وتكاثف ظلامها، حتى إنكما إن ابتعدتما قليلًا عن بعضكما البعض؛ فلن يعثُر أحدكما على الآخر إلاّ إذا ناداه. في هذه الظلمة الدامسة ترى وهج نيران على مبعدة؛ فتترك زوجك في الظلام والبرد، وتقصد ذلك الضوء آملا بقبسٍ أو دليلٍ يهديك الطريق. وتكاد روحك تفارق جسمك، من شدة الخوف؛ حين تبلغ الضوء، فما من نارٍ هناك، بل نورٌ بلا نار ولا دُخان؛ نورٌ تتوهَّجُ به الشجرة، ويصل إلى عنان السماء. فتفرُّ من الرعب هاربًا إلى تلافيف ظلام الصحراء، لكنك تقف بعد مرحلةٍ لا هنًا، وتعود أدراجك إلى الشجرة. في هذه المرة تسمع صوتًا، ليس كأي صوت؛ يسري من اللامكان إلى هذه الشجرة، كأنما جاء من وراء النجوم:
إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ».[1]

كان وجه سايه قد احتقن من الانفعال؛ فقلقت عليها بعض الشيء. أضافت:

«يُخاطبك الصوت ذاته آمرًا؛ أن تضع يدك في جيبك ثم تُخرجها؛ لتسطع بضياءٍ كالشمس. ليس الطريق فحسب هو الذي استنار بهذا الهُدى، بل صرت أنت أيضًا مُنيرًا. تعود إلى زوجك؛ فتسألك في خوفٍ: أوجدت الطريق؟ فتهتف من أعماق روحك: وجدتها، وجدتها، وجدتها».

---

(١) سورة طه؛ آيات ١٢ و١٣.

كنتُ غارقًا في تأمُّل قلادة العقد الذي يتدلَّى على صدر سايه. نظرت في عينيها؛ وقلت: «أنت امرأةٌ سعيدةٌ». ضحكت وقالت: «أنت أيضًا رجل سعيد».

مدّدت يدي إلى قلادة العقد الذهبيّة، وضغطت عليها بأصابعي. إنها هدية علي رضا لنا، ليلة قراننا. وقد حُفر على القلادة، بخطٍ جميلٍ؛ اسم عليٍّ عليه السلام.[1] قلت: «أنت امرأة سعيدة، وعليٌّ رجل سعيد. كان منصور رجلًا سعيدًا، كما كان موسى رجلًا سعيدًا».

فضحكت سايه مرة أخرى؛ وقالت: «أنت مُحِقٌّ في أمر موسى. فالإنسان الذي ذكره الله في عشرين سورة قرآنية، وذُكر اسمه مائة وست وثلاثين مرة في القرآن؛ هو حتمًا رجلٌ سعيدٌ. إن الإنسان الوحيد -على حد زعمك- الذي سمع صوت الله؛ هو حتمًا رجلٌ سعيدٌ». احتضنت يديها بين يديّ، وألصقت جبهتي بهما.

راودني شعورٌ أحمق؛ أريد أن نضيع أنا وسايه ليلةً في صحراءٍ باردةٍ مُظلمة.

كنت قد أشعلتُ الموقد تحت إبريق الشاي. أضع فنجانين فوق الصينية، وتُخرج سايه التُرمس من دولاب المطبخ؛ وتقول: «اصطحب موسى سبعين رجلًا من قومه إلى جبل الطور، ليشهدوا حواره مع الله». أضع علب النسكافيه والسُكّر على الصينية. «لكن مُختاري قومه الجُهّال قالوا: لن نؤمن إن لم نرَ الله بأم عيوننا». أُطفئ الموقد، وأضع ملء عدّة ملاعق شاي

---

(١) هو الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه الشريف، صهر رسول الله ﷺ وربيبه وأول من آمن به؛ وهو رابع الخلفاء الراشدين والإمام الأول عند الشيعة الإمامية.

في الترمس. «قال الله لموسى: سأتجلّى على جبلٍ، فإن استقرّ مكانه؛ فسوف تروني». أخرجت قطعة زبد وعدّة شرائح خبز من البرّاد، وقلت لنفسي: «إن هذا المشروع ثقيلٌ جدًا على سايه». أعطيها الصينية، وأفرغ الماء المغلي في التُرمس، وأستخرج بعض الحلويّات وقنينتيْ حليبٍ مُعقَّم من البراد.

عندما اتخذنا مجلسنا؛ سألتها: «أتعتقدين حقًّا أن الله قد تجلّى على جبل الطور؟ أمُتأكدة أنت من أن الله قد تجلّى على ذلك الجبل؟». نظرت سايه إليّ بوجه خالٍ من أي تعبير.
فأضفت في جفاء: «أحقًا تُصدقين هذه الأساطير؟».
حسبتني أهزل؛ فأجابت مُبتسمة: «يونس، هذه ليست أساطير».
فقلت بصوتٍ أعلى: «إنها أساطير».

جمعت أوراقها في حقيبتها. كانت خائفة بعض الشيء؛ فأجابت: «حتى إن كانت أساطير، فقد تعلمتُ أكثرها منك».

ملأتُ الفنجانين بالشاي؛ وقلتُ: «مِنّي أنا؟ أصبحتُ اليوم أبعُد سنوات عمّا كُنته بالأمس. ما أظنّه الآن أن هذه كلها مُجرَّد أساطير». قالت: « لقد بقيتَ مُستيقظًا طوال ليلة أمس، ومن الواضح أنك لست على ما يُرام».
أفقد أعصابي؛ فأصرخ فيها: «تقصدين أني قد فقدت عقلي؟ هي ذات الحجج دومًا. كل شخصٍ يريد الابتعاد خطوة عن الأساطير والخرافات الموروثة؛ إمّا أن يُدمغ بالجنون أو يُتهم بالإلحاد أو يُعتبر علمانيًّا. من حُسن الحظ أني لم أكن قط بأفضل حالًا مما أنا عليه الآن».

طوال عامين، منذ عُقِد قراننا؛ لم أصرخ فيها أبدًا. تَعقِد سايه أصابعها.
- ماذا تقصد بالأساطير والخرافات الموروثة؟ أتُدرك معنى ما تقول يا يونس؟
- بالطبع أنا أعي ما أقول. صحيح أني كنت أعتقد في هذه الأمور حتى وقتٍ قريب، لكني لا أستطيع الاستمرار الآن في الإيمان مثقال ذرة بها تعتقدينه أنتِ وعلي، وكثيرون ممن لا أعرف. لا أستطيع. أنا أيضًا لستُ راضيًا عمّا آل إليه حالي، لكني شعرت أنه ينبغي لك، يومًا ما؛ معرفة ما آل إليه أمري.

أصبح وجهها أبيض كالطباشير. سألتني بعد ذلك عدّة أسئلة عن الله، وكلما حاولت إخفاء شكوكي؛ لم أستطع. أدرك الآن كم كان كلامي مُرًّا وبغيضًا ومؤلمًا بالنسبة لها. برد فنجانا الشاي. غادرَتْ مقعدها.
سألتها: «إلى أين تذهبين؟».

كانت عيناها مغرورقتين بالدموع، لكنها لم تنظر إليّ قط. عندما أغلقَتْ باب الشقة؛ صَرَخْتُ: «سايه!».

خرجت وراءها إلى ردهة الطابق؛ وناديتها مرة أخرى. لكنها لم تلتفت، وركبت المصعد. عدت إلى المطبخ، وجلست على كُرسيٍّ جاعلًا من يديّ مسندين لخدّيَّ؛ لأحدِّق في مقعد سايه الفارغ، الذي أزيح عن طاولة الإفطار بشكلٍ عشوائي. أحدِّقُ في فنجانيْ الشاي، وفي الملاعق الصغيرة، وفي الصينية، وفي قنينتي الحليب اللتين تبدوان كأنهما شخصان يقفان جنبًا إلى جنب، وقد قُطع رأساهما؛ فلا يصدر عنهما أدنى صوت.

١٢

مرت ثلاثة أيام ولم تتصل بي سايه. حصُلتُ على عنوان منزل پارسا من الجامعة، واتصلت بمهرداد لأرى إن كان راغبًا في الذهاب معي. قبل ظهر يوم الجمعة؛ ركبنا أنا ومهرداد سيارة أجرة، وقصدنا إلى منزل پارسا. كان مذياع السيارة يبُث «مسابقة عشرين سؤالًا»، وكان سؤال المسابقة عن المنشار.

قلت لمهرداد: «حتى الآن لم تخبرني؛ ما الذي دفعك للعودة إلى إيران؟». وضع نظارته في جيب قميصه؛ وقال: «جئت لأصحب أمي إلى فلوريدا؛ فالأطباء يقولون إنه لا أمل لجوليا في الحياة».

نظر من النافذة. لقد علقنا في الزحام. خرج من الحافلة التي تقف أمامنا عادم كثيف.

أغلق مهرداد زجاج النافذة؛ وقال: «أتمنى أن تبقى أمي معنا بعد غياب جوليا؛ إن ابنتي جوانا تود رؤيتها بشدّة».

يسأل المُشارِك في المسابقة الإذاعية: «هل يوجد هذا الشيء في كل البيوت؟».

ترجلنا أمام سينما «شهر قصة»، وقصدنا الجهة الشمالية من الشارع. وفي الطريق إلى منزل پارسا؛ قصصت على مهرداد ما حدث لمنصور. إذ طالما أنه موجود في إيران؛ فليلقَ علي رضا. حلّت صلاة الظهر؛ فها هو الأذان الخافت يصُك سمعنا من بعيد.

كانت السيدة فخرية، والدة پارسا؛ امرأةً مُجامِلة وقورًا. عندما عرَّفتها بنفسي؛ قادتنا بأسارير مُنفرجة إلى غرفة الاستقبال. كانت قد عقدت ستائر التول البيضاء من طرفي النافذة بكلّاب. أشعل مهرداد سيجارة؛ وقال: «اشتقت لابنتي جوانا، وأريد مهاتفتها بعد الظهر».

جاءت السيدة فخرية بصينية صغيرة عليها فنجانا قهوة بالحليب. جلست أمامنا، وقد وضعت على رأسها خمارًا أسود. قلت: «كان الدكتور من مفاخرنا، وذخائرنا العلمية؛ وخسارته لا يمكن لمجتمعنا الأكاديمي تعويضها».

لم تُجِب بشيء. تأملتُ صورة پارسا، المعُلقة على الجدار المواجه؛ كان أقل شبابًا من الصورة التي سبق لي رؤيتها في ملفه. قلت: «آمُل أن يُسهِمَ بحثي في الإقلال من هذا النوع من الحوادث». نفض مهرداد سيجارته في المنفضة؛ وساعدني قائلًا: «سيدة فخرية. ما هو دافع الدكتور، حسب اعتقادك؛ لما أقدم عليه؟».

حرّكت والدة پارسا يديها في الهواء؛ وقالت: «لا أعرف ... حقًا لا أعرف شيئًا. بعد وفاة أبيه، العقيد پارسا؛ عاد مُحسن من أميركا لأجلي. كان ابننا الوحيد، ولذلك كنت أعمل أنا ووالده دومًا على أن نوفِّر له كل سُبل الراحة

في حياته. لم يكن والده يسمح لُمحسننا بأن يُصادق أحدًا أبدًا، ولا أن يمضي وقته يتسكع هنا وهناك. لقد انصب جهدنا على أن نهب المجتمع ولدًا سليم التربية مُثقفًا، وقد رأيتما ماذا فعل المجتمع به».

فاضت عيناها بالدموع؛ فمسحتهما بطرف خمارها الأسود.

سألتها: «أي مجتمع تقصدين؟ هل تتهمين أحدًا بعينه؟».

– لقد صرت وحيدة بعد العقيد. ما كان يجدر بمحسن أن يفعل بي ذلك؛ لقد دمرني ودمر نفسه. لقد كتبوا في ملفه أن مُحسني قد أهلك نفسه بسبب اليأس، وضغط عمله الذي تخطى الحدود. لكن كل هذه مجرد أكاذيب. فلم يكن محسن باليائس أبدًا، ولم يتذمر من عمله أبدًا. كان إنسانًا عقلانيًا صاحب منطقٍ سليم، وكان كل أقاربنا يعرفون أن تصرفاته رزينة ومحسوبة. كان ينظر بعينٍ علميّة إلى كل شيء وكل شخص. لقد برد شرابكما، تفضلا بتناوله.

رفعنا فنجاني القهوة بالحليب عن الصينية، وواصلتُ: «ألم تستشعري أي تغيُّرٍ في سلوكه قبل وقوع الحادث؟ ألم يصِر عصبي المزاج أو مُفرط الحساسيّة مثلًا؟».

نهضت السيدة فخرية لتُحضر إطارًا، يضُمُّ صورة صغيرة؛ من فوق خزانة الملابس الخشبية القابعة في رُكن الغرفة، وأرتني إياها. كانت الصورة لپارسا، وقد ثنى بيديه مسطرة، حمراء قانية طويلة؛ حد الانكسار، وهو يبتسم للكاميرا.

– لقد التقطت هذه الصورة له قبل ثلاثة أسابيع من موته. كان محسن ضاحك السن دائمًا، كما تريان في الصورة. وكان دائم الحيويّة. وبرغم أنه اعتاد السهر، للمطالعة أو الكتابة؛ حتى أوقات متأخرة من الليل، لكنه كان

يستيقظ في السادسة صباحًا. كان يحيا في نظامٍ وفقًا لتخطيط دقيق؛ مُنظمًا مثل الساعة. يبدأ بممارسة الرياضة قليلًا عند استيقاظه، ثم يتحمم سريعًا، ويقرأ الصحيفة حتى أعد الفطور. وأحيانًا يستمعُ إلى نشرة الأخبار، بدلًا من قراءة الجريدة. كان يُنفِّذُ ذلك البرنامج منذ عودته إلى إيران. وقبل شهرين فقط من وفاته، أصبح انطوائيًا بعض الشيء؛ فكان يستيقظ مُتأخرًا، ولم يعُد يُمارِسُ الرياضة بانتظام، وصارت أكثر الأوقات التي يقضيها في المنزل؛ ينعزلُ في غرفة مكتبه، وهو ما لم يكن بالأمر المثير للقلق. لكنَّهُ قد استشار طبيبًا نفسيًا ذات مرّة؛ فأكَّد له أنه ما من داعٍ للقلق.

أطفأ مهرداد سيجارته في المنفضة؛ وقال: «أعتذر عن طرح هذا السؤال يا سيدة فخرية؛ لكن هل كان واقعًا في حُبِّ امرأةٍ ما في تلك الفترة؟».

- تعني أنه رُبّما كان مُهتمًا بإحداهن؟ لا أعتقد ذلك، فلو كان على علاقة بامرأةٍ ما؛ لأخبرني حتمًا.

- من أين لكِ كل هذه الثقة؟

- لأني لم أكن أمانع في زواجه؛ فليس ثمّ داعٍ ليُخفي عنّي أمرًا كهذا. أنا متأكدة بأنه لم تكن هناك قصة من هذا النوع قطّ. أضِف إلى ذلك أن مُحسن كان يعشق عمله فحسب؛ يعشق المطالعة والتدريس. كان مُحسني يعشق العلم بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

سألت: «هل يمكن أن تُرينا غرفة مكتبه؟».

- بالطبع، وإن كنت لم أدخلها بعد موته قطّ، ولا أريد أن أفعل الآن.

قادتنا إلى غرفته، وغادرت هي إلى المطبخ. غرفة پارسا هي الضلع الشرقي للشقة؛ صغيرة نسبيًا، وقد ملأ مكتبه وحاسوبه نصف مساحتها، وشغل الركن الآخر منها عدّة رفوف ملأى بالكتب؛ جميعها علمية، ومعظمها باللغة الإنكليزية. وقد عُلقت صورتان على الجدار؛ واحدة بالأبيض والأسود لوالد پارسا، بزيه العسكري؛ والأخرى بورتريه بالفحم لماكس بلانك. تصفّحت الكتب والكراسات، الموجودة على مكتب پارسا؛ بسرعة، والتقطت كُراسًا، لمخطوط كبير الحجم؛ كُتِب عليه بخطٍ عريض: «تحليلٌ رياضيٌّ للمفاهيم البشرية». ووجدتُ دفترَ ملاحظاتٍ صغيرًا، كان پارسا قد دوّن فيه يوميّاتُه؛ إلى جانب تقويم المكتب. أخذت الكراس والدفتر الصغير لأقرأهُما، فأشار مهرداد باحتمال وجود أشياءٍ مُهمة في ذاكرة الحاسوب، لكني أجّلتُ الحاسوب لما بعد؛ وخرجنا من الغرفة. طلبت من السيدة فخرية أن تُعيرني المذكرات والكراس، مدة قصيرة؛ لقراءتها.
قالت: «لن تفهما منهما الشيء الكثير، لكن إذا كنت تعتقد أنها ستُساعِدُك؛ فإن قراءتها ليست بها يُسبب مشكلة من وجهة نظري».

وصلنا إلى شقتي في الثانية بعد الظهر. وضع مهرداد عدّة شطائر فوق المائدة، وأخرجت أنا علبتيْ مياهٍ غازية من البراد. وأثناء تناول الغداء؛ أخبرني مهرداد إنه قد أخذ جواز سفر والدته ليستخرج لها التأشيرة. وأضاف إنه لا توجد مشكلة في سفر أمه المريضة والمسنة، وذلك من وجهة نظر السفارة السويسرية؛ باعتبارها القائم بأعمال السفارة الأمريكية في إيران. أشعل مهرداد سيجارة بعد تناول الغداء؛ فسألته: «ألا تريد الاتصال بجوانا؟ أنا مشتاق جدًا لسماع صوتها».

فأجاب: «لغتها الفارسية ليست جيدة، ولكن حديثها جميل».

اتجه مهرداد إلى الهاتف، واستلقيت أنا على الأريكة. طلب الرقم، وأنا أفكر في سايه وأمي وپارسا ومونس وعلي. ومرة ثانية في سايه، وفي منصور، وفي مهرداد، وفي أطروحتي، وفي جوليا ... وفي الله.

«Hi Joanna».

نهضت بسرعة، وضغطت زر مُكبِّر صوت الهاتف؛ لأسمع صوت جوانا. وقلت لمهرداد أن يطلب منها الحديث بالفارسية.

– جوان؛ أحد أصدقائي هنا، ويريد أن يسمع صوتك بالفارسية. قولي الآن؛ أين جدتك؟

– لقد ذهبت إلى البنك. أتريد أن تعرف ماذا حصل بالأمس في روضة الأطفال يا أبي؟

– بالطبع يا عزيزتي.

– عَدَّ مايك حتى مئة في دقيقةٍ واحدة، لكنني استطعت العد إلى ثلاثة وثمانين فقط.

– حتى ثلاثة وثمانون تُعتبر إنجازًا جيدًا جدًا يا حبيبتي؛ فعندما كنت في مثل عمرك، لم أكن أستطيع أن أعد حتى الستين في الدقيقة الواحدة.

– لم تستطع مارغريت العد لأكثر من أربع وعشرين، وانعقد لسانها. تقول إيريس إن الله يستطيع العد حتى الألف في كل دقيقة. أصحيح ما قالته إيريس يا أبي؟

– أعتقد أنها مُحقّة يا جوان.

- أتذكر آلن؟ ذلك الذي عكس ضوء الشمس في عيون الأطفال، بالمرآة التي سرقها من حقيبة السيدة جاكسون؟

- ماذا فعل هذه المرة يا جوان؟

- لم يفعل شيئًا، لكنه قال إن الله يستطيع عمل أي شيء. قال إن الله قادرٌ على هدم بناية من اثنين وأربعين طابقًا في شارع غولدن كيت خلال دقيقة. بل إنه يستطيع إغراق سفينة كبرى مليئة بالفحم الحجري بنفخةٍ واحدة، وأن يأخذ من البحر ألف سمكة دون شبكة صيد.

نظر إليّ مهرداد، وسأل ابنته مُبتسمًا: «وما رأيك أنت يا جوان؟».

- صحيح أن آلن اختطف شطيرتي من يدي قبل أسبوع، لكنني أعتقد أنه مُحِقّ.

- أنا أيضًا أعتقد ذلك يا جوان.

- أبي؟

- نعم يا عزيزتي؟

- أتعتقد أن الله يستطيع فعل أي شيء؟

- بالطبع، يا جوان.

- وهل يقدر على شفاء أمي؟

انهار مهرداد مبهوتًا على الكرسي، ووضع يده على جبهته، واتكأ إلى مسند الكرسي وهو يُجيب:

«Of course honey».[1]

---

(١) بالطبع يا حبيبتي.

١٣

في التاسعة صباحًا؛ ذهبت للقاء الدكتور مير نصر، بناءً على موعد سابق. كنت قد حصلت على عنوانه، في المحكمة؛ من القصاصة الورقية التي كانت في جيب پارسا عند انتحاره. تقع عيادة الدكتور مير نصر في الطابق السابع من برج ذي أربعة وعشرين طابقًا. ومع أنه قد التقى پارسا منذ سنة ونصف، ولمرة واحدة فقط؛ لكنه يتذكره جيدًا، على عكس قاضي التحقيق. لم يكن يعلم بانتحاره، وعندما أخبرته بالحادث؛ تعجَّب أكثر مما أسف، وطلب من سكرتيرته إحضار ملف پارسا.

سألته: «كيف لم تعرف؟ لقد نشرت الصحف الخبر». سكب القهوة في فنجانين فرنسيين؛ وقال: «أنا لا أقرأ الصحف، وأطلب أيضًا ممن يأتون إلى هنا؛ ألا يقرؤوها». وضع أحد الفنجانين أمامي؛ وأضاف: «ليست الصحف فحسب، لكني أعتقد أن أي وسيلة تهدف لنقل معلومات مُتفرِّقة وغير مرتبة دفعة واحدة للمتلقّي؛ هي وسيلة ضارّة. فالمذياع، والتلفاز، وجهاز الاستقبال الفضائي؛ عملها الوحيد قصف المعلومات، فهي تمطر على رؤوسكم معلومات مُتفرقة وغير نافعة. فما الذي نُفيده من معرفة التطورات التي حصلت للبورصة في المكان الفلاني من العالم؟ أو ما قد صوَّره منظار

هابل مؤخرًا من أقاصي الفضاء؟ وما هي أهميّة مقتل خمسة وستين شخصًا على إثر سقوط طائرة في نبراسكا؟ أو كون مُزارعًا دنماركيًا قد عثر، في إسطبل مزرعته؛ على قطة غريبة، لونها في الضوء أخضر وفي الظل رمادي؟ ما هي أهمية معرفة أن امرأة في فلوريدا قد وضعت ثلاثة توائم؟ أو أن رجلًا قد خنق طفليه في حوض الاستحمام؟».

حركت قهوتي؛ وقلت مازحًا: «سيل الأخبار، خيرٌ من قحط الجهل».

- لا أوافقك الرأي؛ فسيل الأخبار يجعل معرفة الإنسان مُضطربة. وعندما تصبح معرفتك مضطربة؛ تصير عاجزًا. فالمعرفة المضطربة أسوأ من الجهل؛ لأن ثمت راحة في عدم المعرفة، لا توجد في المعرفة. فمثلًا إذا عرفت أنك مصاب بنوعٍ من الأمراض، وسوف تموت بعد عدّة أشهر؛ فماذا سيكون شعورك؟ إنّ بعض الأشخاص مُستعدون لأن يدفعوا مالًا، لئلا يعرفوا ذلك.

لم أجب على سؤاله، وقُلت مُغيّرًا دفّة الحديث: «على أي حال، فالهروب اليوم مما سميّته قصف الأخبار؛ ليس بالأمر السهل». رشف قليلًا من القهوة؛ وقال: «صحيح أنه عمل صعب، لكني أفضّل الاستماع للموسيقى، أو قراءة غزليات حافظ؛ على قراءة الصحف ومشاهدة التلفاز». حدَّقتُ في عينيه؛ وقلت بلهجةٍ ذات مغزى: «أوافقك الرأي».

دخلت سكرتيرته الغرفة، ووضعت ملف پارسا على المكتب؛ فتأملها بخُبثٍ وهي تغادر الغرفة، وقال: «في هذه الدنيا الواسعة أشياء كثيرة أهم من الصحف والتلفاز؛ أتوافقني الرأي؟».

أجبت مبتسمًا: «أهم شيء في نظري الآن؛ هو محتويات الملف الموجود على مكتبكم». تصفَّح الملف؛ وقال بكثيرٍ من الجدية: «نحن أطباء النفس مثل الصخور في صمتها، أو قساوسة الكنيسة، أو موظفي البنوك؛ لا يحقّ لنا إفشاء أسرار الآخرين أبدًا».

قلت: «بالتأكيد؛ لكن يجب تشجّيع أي مسعى للحد، ولو بمقدار أنملة؛ من هذه الحوادث الشاذة في المجتمع». ووضعت توصية الكلية أمامه على المكتب، وذكرته ثانية بهدفي من هذا البحث. وقلت: «الدكتور پارسا لم يعُد موجودًا، فأي ضررٍ يعود عليه من قراءتي لهذا الملف؟». فكر قليلًا، ثم قال إنه قد يضع الملف تحت تصرفي؛ إذا حصلت على موافقة خطية من أسرته.

توجهت مباشرة من عيادة الدكتور مير نصر إلى مكتبي في مؤسسة الدراسات؛ فوجدت على مكتبي مذكرة من رئيس المؤسسة، يطلب فيها تقريرًا عن مسار البحث. اتكأت إلى مسند المقعد، وأغمضت عيني، وفكرت بالمعلومات التي حصلت عليها من طلاب پارسا وأمه والملف القضائي وكيوان بايرام. لم أجنِ شيئًا. ذهبت إلى النافذة ونظرت إلى أسفل. لقد تصادمت سيارتان؛ فسدَّتا الشارع، وقد علقت سيارات كثيرة خلفهما في الزحام. كان سائقو السيارات البعيدة، التي لم تعرف بالتصادُم؛ غاضبين ويطلقون آلات التنبيه باستمرار. وغير بعيدٍ عن مكان الحادث؛ وضع شرطي إيصال مخالفة تحت ماسحة زجاج إحدى السيارات، لأنها تنتظر في مكانٍ ممنوع. دقّ الهاتف؛ فأسرعت إلى مكتبي ورفعت السماعة، فانبعث صوتٌ أنثويٌّ من الطرف الآخر. ظننتها سايه أول الأمر؛ إلا أنه لم يكن صوتها:

«انقلب كل شيءٍ فجأة. عندما بدأت اللعبة ركضتُ بسرعةٍ، وركَضَ هو في إثري. فقلت له أني لست طرفًا في اللعبة، لكنه كان دائمًا يطلب مني التمهُّل. كنا ندور حول المسبح، وبعد ذلك أسرعت بالركض؛ فأُجبر هو أيضًا على الإسراع. قسمًا بالله لم يكن ذنبي. قصدت حافة المسبح؛ فطلب مني ألا أذهب إلى هناك. ولم أكترث. ثم جاء هو أيضًا إلى الحافة. فدُرت كثيرًا حتى أُصيبَ بالدوار. أما أنا فلم أصب بشيء. قسمًا بالله لم يكن ذنبي؛ إذ لم أكن أنظر خلفي. لقد أصبت بُرعبٍ شديد. بعد ذلك سمعت صوت سقوطٍ في الماء، وتطاير الماء على رأسي ووجهي».

صمتت للحظات، وقبل أن أخبرها إنها قد طلبت الرقم الخطأ، وأضع السماعة؛ سألت بفضول: «ماذا حدث بعد ذلك؟». قالت:

«Nothing. Then I gradually stopped and stared at the water. But he never surfaced».[1]

(١) لا شيء. فبعد ذلك توقفت تدريجيًا وحدقت في سطح الماء؛ غير أنه لم يَطْفُ أبدًا.

١٤

اتصلت بأمي هاتفيًا عدّة مرات، وما من مُجيب؛ فقلقت جدًا. أتمدد على السرير، وأتصفّح كرّاس پارسا المخطوط، الذي كتب في مقدمته أنه برغم استعانته بأصدقائه، الحاصلين على أعلى الشهادات في الرياضيات والعلوم السياسية وعلم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس؛ لاستكمال هذا المشروع، إلا أن بحوثه ليست علمية على الإطلاق، وينبغي اعتبارها مُقدِّماتٍ وطرحًا أوليًا للمباحث في هذا الشأن.

رُسمت على مُعظَم صفحات الكرّاس البياني؛ منحنيات من علم الهندسة المستوية والمجسمة. والمنحنيات هي أشكال هندسية خاصة تُبيّن، في تصور پارسا؛ الروابط بين المفاهيم الإنسانية بلغة رياضية. وتبيّن مجموعة من هذه المنحنيات علاقة السعادة، بشكلٍ مُجزأ؛ مع مفاهيم مثل: العمل، والنفوذ الاجتماعي، والشهادات الدراسيّة، والشهرة، والراتب. والقسم الآخر من هذه الرسومات هي محاولة للبحث الكمّي والنوعي لمجتمع نموذجي. في البحث الكمّي دُرست وظيفة أبعاد مثل: مساحة الأرض، وعدد السكان، ونسبة الشباب والنساء إلى كل السكّان، ونسبة العاملين، والناتج القومي، والأمن والنظام الاجتماعيين، والثبات السياسي، والقدرة العسكرية،

ودورها في تزايُد سرعة النمو لمجتمع واحد. وفي البحث النوعي تمّ تقييم وزن مفاهيم مثل: الاقتصاد، والثقافة، والحرية، والتقنية، والمذهبيّة، والفن، والصحة، والتعليم، والصناعة؛ قياسًا إلى وزن هذه المفاهيم في مجتمع مرغوب فيه. والقسم الآخر من الكرّاس يبحث في العناصر المخرّبة؛ التي تؤدي بالمجتمعات إلى حالة الركود والتراجُع. وقد أُلحقت بهذا القسم إحصائية مُفصَّلة عن الشذوذ الاجتماعي في إحدى الولايات الأمريكية، وذلك في موضوعات مثل: السرقة، والاحتيال، والعنف، والقتل، والاختطاف، والتزوير.

دقّ جرس الباب؛ فوضعت الكراس جانبًا، واتجهت نحو الباب. كانت الساعة العاشرة صباحًا. فتحت الباب. كان علي رضا قد جاء يُعيد مفاتيح السيارة إليّ. جلسنا في غرفة الاستقبال، وأريته كرّاس پارسا. طلبت منه أن يقرأه، ويُخبرني إذا وجد شيئًا يتعلق بانتحار صاحبه.

نظر علي إلى الكرّاس؛ وسأل مُبتسمًا: «أمازلت مشغولًا بنبش قبر پارسا؟».

- هذا الپارسا الذي صار من الأموات، إن لم يقبرني؛ فلن يُخبرني لماذا انقبر! لدى پارسا حاسوب في بيته، ربما حوى معلومات قيّمة. قد تُصيبك شظايا هذا المشروع أنت أيضًا؛ فهل ستُساعدني؟

صمت للحظات؛ ثم قال: «سأساعدك، ولكن ثمة أسئلة أصعب من سبب انتحار پارسا. إن إجابات هذه الأسئلة فوق مستوى إدراكنا». كانت كلماته مُفعمة بالكنايات كالمُعتاد.

- أهناك موضوعٌ مُعيّن تريد أن تحدثني فيه؟
أضاف كأنه لم يسمعني: «هذه الأشياء لا يمكن فهمها أو إدراكها أو حتى تفسيرها. يمكن الاقتراب منها بقدرٍ، أو الشعور بها، أو حتى الذوبان فيها، ولكن يستحيل عقلًا فهم أو إدراك مثقال ذرة من كُنهها».
- أأنت مضطرٌ للحديث بالكناية؟

لم ينبس ببنت شفة. دفع علبة المناديل الورقية لتُخفي نقش الطاولة الزجاجية؛ فوصلت العلبة إلى حافة الطاولة. قال: «على ما أذكر؛ كانت سايه تحبك من أجل إيمانك، لا من أجل عقلك».
أعدت علبة المناديل أمامه؛ وقلت: «هل أخبرتك سايه أننا تخاصمنا؟».
- أخبرتني أنك صرت تشُك في كثيرٍ من الأشياء. أنا لست قلقًا من شكوكك؛ لأن الشك حقٌ طبيعي، لكني قلقٌ من شيء آخر.
- قلقٌ من أي شي؟
صمت؛ فأعدت سؤالي مرة أخرى.

كأنما كان يبحث عن الكلمات المناسبة، صمت للحظات؛ ثم قال: «قلقٌ من هزيمتك أمام نفسك فجأة. قلقٌ من فرط اقترابك؛ الذي سيحجب عنك كل ما يُمكنك رؤيته. لقد انتحر پارسا، وأنت ما زلت لا تعرف السبب. إن جواب ذلك مُجرد حقيقة صغيرة، فما بالك بالحقائق الكُبرى: هل سمع موسى ربّه في الوادي المقدس؟ لا شهود على ذلك، ولا أحد يستطيع أن يُثبِت، بمنطقٍ علمي؛ ما إن كان موسى قد سمع صوت ربّه، في تلك الليلة الباردة المظلمة؛ آتيًا من الشجرة. هل تجلّى الله على جبل الطور؟ لا شهود على

ذلك. وما من وسيلة علمية لإثبات أو نفي تجلّي الله على جبل الطور. هل الله موجود؟ لم يره أحد. لا أحد يستطيع الاقتراب من الأجوبة. إن كل واحد من هذه الأسئلة يُشكِّلُ حقيقة كبيرة. وعدم المعرفة الذي لا يُثبت الشيء، لا ينفيه أيضًا. نحن نؤمن فقط بهذه الأشياء، أو لا نؤمن ... هذا جُلّ ما نستطيعه».

تناولت جهاز التحكُّم عن بعد من على الطاولة العسلية، وشغّلت التلفاز. كان علي يجلس وظهره إلى الشاشة.

- إني أؤمن بالأشياء التي أفهمها؛ قصدي أن الفهم مصدره التجربة والعقل.
قبض بيده على ميدالية مفاتيح السيارة، التي على شكل دب صغير؛ وقال: «هذا كلام صحيح».
- هل تختبر الله؟

أعاد المفاتيح إلى الطاولة؛ وواصل: «أعرف أُناسًا يتعاملون مع وجود الله، وصفاته أيضًا؛ كلعبةٍ يتلذذون بها. إنهم يعبثون حين يتوهّمون قُدرتهم على اختبار الله».
أغضبني كلامه قليلًا؛ لكني حاولت الالتزام بهدوئي: «أيمكنك أن توضح لهذا الملحد الضال الوسيلة أو المختبر الذي يُمكن بواسطته اختبار الله؟».

كان التلفاز يعرض فيلمًا وثائقيًا عن تاريخ صُنع التلسكوب. نظر عليّ في عينيَّ، وتلفَّظ بشيء، بصوت مبحوح أقرب للهمس؛ اضطرني لإحناء رأسي مُقتربًا من فمه، لأسمعه. قال بلهجةٍ حزينةٍ: «أنا آسف، أنا جد آسف لأن الملحدين لا يستطيعون اختبار الله؛ إذ على عكس طريقتنا في اختبار الطبيعة،

التي نتعرَّف لقوانينها بعد اختباراتٍ؛ ينبغي لمن أراد اختبار ربّه الإيمان أولًا بنواميسه، ثم اختبارها بعد ذلك إن شاء. ولا أبالغ حين أُقرر أنه كلما كان إيمانك بنواميسُه أرسخ؛ ازدادت احتمالات نجاح الاختبارات. إذ على قدر إيمانك بالله يكون حضوره في وعيك. فكلما ازداد إيمانك؛ ازداد حضوره كثافة في وعيك».

عقد يديه، وصمت للحظات. ثم ظهرت قطرتا دمع في زاويتي عينيه، لكنهما تجمدتا. لم أفهم أكثر كلامه؛ لكنني مثل كل مرة شعرت بسلامٍ وانسجامٍ بسبب منطقه. منطقٌ إما أن تقبل كل مفرداته، أو لا تقبل منها شيئًا. تناول منديلًا، ومسح عينيه؛ وقال: «برغم أن وجود الله ليس مُرتبطًا بإيماننا؛ لكن إدراكنا لهذا الوجود مُرتبطٌ كُليًا بحجم إيماننا».

حدّق عليٌّ مرة أخرى في علبة المناديل الموضوعة على الطاولة، وضربها هذه المرة بقوة أكبر؛ فانزلقت، ومرت قُرب دُبّ ميدالية المفاتيح، وصدمت حافة الفنجان، وتمايلت قليلًا وهي تقترب مسرعةً من حافة الطاولة. مددت يدي لأمنع سقوط العلبة من على الطاولة، لكنها لم تسقط. بل توقفت في حالة عدم توازن، برغم أن جزءًا صغيرًا منها فحسب هو ما بقي مُستقرًا على الطاولة، وكان الباقي كله مُعلقًا في الهواء! غرقت حيرةً في الوضع الذي آلت إليه عُلبة المناديل، ونظرت إلى عليٍّ بمزيجٍ من الاستغراب والحماس والشك والتساؤل والخوف؛ لكنه كان يغطي وجهه بيديه، ولا يُحرك ساكنًا.

١٥

كنت قابعًا في السيارة أمام الإشارة الضوئية الحمراء، في تقاطع شارعي غاندي وجهان كودك. أفكر في مهرداد. فقد مرّت عدة أيام لم أره فيها. كان مشغولًا بالحصول على تأشيرة أميركا لوالدته. الوقت أواسط شباط، وقد برد الجو كثيرًا. يهُب نسيمٌ باردٌ من نافذةِ السيارة. كان مُقررًا أن نتعشى الليلة، أنا ومهرداد وعلي رضا؛ سويًا في أحد المطاعم الهادئة في تجريش.[١] سأسافر في الصباح الباكر بالطائرة إلى أصفهان، لأقابل شهرة بُنيادي، التي انتقلت إلى هناك هذا الفصل الدراسي. عندما أعود من أصفهان؛ عليَّ أن أجد مهتاب كرانه. كم أرغب في إغلاق ملف پارسا بأسرع وقتٍ، وأحرر نفسي من هذا التشرُّد. لقد تعبت من هذا الوضع، فقد مضت عشر سنوات وأنا أتسكع مثل الغجر في جامعات طهران؛ من جامعةٍ إلى أخرى. لقد اشمأزت نفسي من حجرات الدرس، ومن الفصول الدراسية، ومن الدراسة والتدريس، وكل التفاهات التي من نفس النوع. سيذهب علي غدًا إلى منزل پارسا، أثناء غيابي عن طهران؛ ليبحث في الملفات الموجودة في حاسوبه.

(١) إحدى المناطق الجبلية الراقية في شمال طهران.

كانت الإشارة الضوئية لا تزال حمراء، والسيارات مُتراصّةٌ خلف بعضها البعض مثل القطار. منذ مدة لم تصلني أيّة أخبار عن سايه، ولا عن أمي ومونس أيضًا. پارسا، وپارسا، وپارسا. كل وجودي صار پارسا. أمي وأختي وزوجتي وحياتي، وحتى أنا أمسيت پارسا. اللعنة على پارسا، وعليّ أنا أيضًا إذ اخترت هذه الأطروحة التي تُحطِّم كل حياتي. لم أتقدم حتى بمقدار ذرّة. توقَفَت سيارة حديثة خمرية اللون قُربي، وبدأت تُطلق نفيرها. أمعن النظر للحظةٍ، من خلال الزجاج المُظلّل؛ في سائقها، والذي شرع يُشير بيديه. إنه برفيز؛[1] شقيق أحد زملائي بالجامعة. إنه أفّاقٌ من تلك الحيوانات الجميلة الثريّة. إلى جانبه تجلس فتاة تغطي عينيها بنظارة شمسية. وعندما أنزل زجاج نافذة السيارة؛ تعالى منها صوت موسيقى الروك آند رول.
قال: «مرحبًا يا يونس، أين أنت يا رجل؟».

ابتسمت وأنزلت زجاج نافذة السيارة. أشرت إلى الإشارة الضوئية؛ وقلت: «عند الإشارة الحمراء». ثم سألته أحد أكثر الأسئلة سُخفًا وعبثيّة: «كيف هي الأخبار؟».

صكت أنفي رائحة العطر الحادة التي تفوح من سيارته. زمّ برفيز شفتيه، وأشار إشارة ذات مغزى إلى الفتاة الجالسة إلى جواره؛ وقال:
شم رائحة البنفسج وامسك سالف الحسناء
انظر إلى لون الشقائق وفكر بالراح

---

(١) تكتب «برويز» في الفارسية، وأصلها: «ابهرويز»، وتعني: المنتصر أو المظفر.

ثم قهقه، وشرعت فتاته بالضحك أيضًا. فكرت أن برفيز يتلخّص في ثلاث جُمل: «برفيز لا يفكرّ. برفيز مُستريح. برفيز سعيد».

قال: «ما زلنا أحياء؛ إما منشغلون مع الأصدقاء أو بالحفلات. إمّا ننشق دخان الأفيون، أو نرشف العشق. الخلاصة أن أمورنا بخير؛ إما مع العزيزة شوري وإما مع العزيزة شيرين.[1] وإن لم تكونا كلتاهما موجودتين؛ فجمال ثُرّيا كافٍ».

سطع ضوء الشمس في عينيَّ مباشرة؛ فأنزلت واقية السيارة لتحجب عني الشمس، ووقعتْ عيناي على صورة سايه التي ألصقتها على ظهر الواقية. في هذه الصورة كانت سايه تقف تحت إعلان تجاري كبير لساعة أوماكس، وهي تبتسم باتجاه نقطة مجهولة. كان برفيز لا يزال يتكلم: «قال إسي[2] خان لسيا[3]: اخرس! لقد عرفت يا قذر! قال سيا: لقد قيل لك غير الحق يا إسي خان! فقال إسي: سأقتلك! وسأقتلها! قسمًا بالله سأقتلكما أنتما الاثنين. لكني قلتُ له: اهدأ يا إسي خان! وأنت يا سيا تنازل قليلًا واعترف بأنك حقير، أو ادَّعِ ذلك حتى. سبَّهُ إسي خان: يا عديم الخلق! يا عديم النخوة! كان غاضبًا جدًا، والحق معه. وقد لُمت سياوش وأنّبته: ألم يكفك كل فتيات المدينة، فتترُكهن إلى سوسن؟».

- ومن هي سوسن؟

(١) يتلاعب الكاتب بالكلمات؛ إذ تعني شوري المالح، وتعني شيرين الحلو؛ فيقصد بذلك فتيات مختلفات.

(٢) مخفف اسم «إسماعيل» تحببًا.

(٣) مخفف اسم «سياوش»، ويعني: أسود اللون، وهو اسم ملك فارسي أُسطوري قُتل غيلة.

نظر برفيز إلى الإشارة الضوئية في الجانب الآخر من التقاطُع، وقد تغير لونها إلى الأصفر؛ وقال: «إنها أخت إسي خان، جُعِلتُ فداك!».

صار ضوء الإشارة أخضر، وفجأة اختفت السيارة الخمرية بين مئات السيارات الصاعدة إلى شمال المدينة. ثم كأنما صعد شيء مُبهم وغير مفهوم، مثل خروج ضفدع من مستنقع أسود لزجٍ؛ من أعماق ذهني. تصاعَد وأقلقني وسط تقاطُع غاندي، وأنا حائرٌ بينَ السيارات التي تمضي بجنون إلى الأطراف. نظرت باستغرابٍ وعجز إلى طرفي الشارع، ثم كطفل ضاع من أمه؛ تملكّني الخوف. قبضت بيديّ على مقود السيارة، وأغمضت عينيّ للحظة؛ لأُحيل ذلك الشيء غير المفهوم وجودًا شفافًا، ولأسأل نفسي: «هل الله موجود؟».

١٦

إنه الغروب. ينساب صوت الأذان من النافذة. كانت سايه تُصلي، وهي ترتدي عباءة صلاة بيضاء مورّدة؛ بينما أنا أشاهد التلفاز. تضع أم سايه صحن فاكهةٍ على الطاولة، وتخرج من الغرفة. يبثُ التلفاز برنامجًا وثائقيًا عن كيفية التخلّص من الأعشاب الضارة. تُنهي سايه صلاتها؛ فتجلس أمامي على الأريكة. التقطتُ تفاحةً من الصحن، وقشرتها بالسكين.

قلت لها: «تُقبِّلت صلاتك».

فتحت عقدة العباءة تحت ذقنها؛ وقالت: «ليتقبّلها الله».

قطّعت التفاحة بالسكين إلى أربعة أجزاء؛ وقلت: «تبدين أجمل في عباءة الصلاة».

لفت عباءتها حول ساقيها، وقالت: «لا داعي لمعاملتي كالأطفال. أعرف أنه ما كان يجدُر بي الاتصال بعلي رضا. لكن، في الحقيقة؛ لم يكن لدي خيارٌ آخر، فقد كنت خائفة جدًا».

فسألتها: «أما زلت خائفة؟».

- لا؛ لست خائفة. طمأنني عليّ بأنه ما من سبب للخوف. وأن الشك مرحلة جادة في الحياة؛ لكنها محطة مُزرية ومنهكةٌ جدًا.

أغرز الشوكة في إحدى قطع التفاحة؛ وأسألها: «ماذا إن توقّف قطاري في هذه المحطة إلى الأبد؟».
رفعت الخمار؛ فانساب شعرها على كتفيها.
- يقول علي إن شيئًا كهذا غيرُ ممكنٍ؛ لأن الشك مُجرد حالة نظريّة: وهم. فالله موجودٌ، ووجوده لا علاقة له بشكنا أومعرفتنا. قال إن الشك ليس شيئًا قائمًا بذاته حتى نسقُط فيه؛ إنه مُجرّد توهُّم لوجود حفرة.
- على كل حال، أنا آسف على ما حصل ذلك اليوم. أنا حقًا آسف.

نظرت إليَّ للحظات؛ ثم قالت: «أنت على أية حالٍ زوجي المستقبلي. تقول أمي: مهما كبر الرجال ومهما كانوا مثقفين وأغنياء؛ إلا أنهم يظلون أطفالًا. يغضبون سريعًا، ويندمون سريعًا، ويفيئون سريعًا أيضًا. يمكن ألا يعترفوا بشيء أمام نسائهم، لكهنم قد يشرعون بالبكاء إذا انفردوا بأنفسهم. تقول أنه لهذا السبب لا يرى أحد بكاء الرجال. وترى أمي إن النساء مهما كنَّ صغيرات إلاّ أنهن أمهات، وحماة للرجال. حتى الفتيات الصغيرات هُنَّ ملاذ آبائهن. لقد أخبرتني أمي أنك ستعود».

نهضت من على الأريكة واتجهت لمجلسها، وركعتُ على ركبتيّ أمامها. وقعت عيناي على يديها، وثبتت هناك. لقد ظهرت عدّة بقع بيضاء على يديها؛ لابد أنها من كثرة غسل الصحون. قلت: «صَدَقتْ أمك».

لا أعرف ما الذي أصابني. في رأسي ضوضاء. أحس بأني مثل طلاب المرحلة الابتدائيّة؛ لا أعرف شيئًا عن أي شيء، فأبسط الأسئلة أمست في عينيَّ أحاجيَ مُعقدة. كأن الظلام قد ابتلع كل شيء، وكأني أمسيت أعمى.

أضع رأسي على ساقي سايه، ويدي على يديها، وكأن العبرات التي ظلت تخنقني عدّة سنوات قد أُطلقت من سجنها أخيرًا؛ فأجهش بالبكاء. تملأ رائحة الليلك، المنبعثة من عباءة صلاتها؛ رئتيّ. تستل سايه أصابعها من بين أصابعي، وتغرزها في شعري، وتبدأ -فجأةً- بإنشاد واحدة من القصائد التي أحفظها:

حلمت أن رجلا سيأتي؛
حلمت بنجمة حمراء
يرف جفن عيني باستمرار
وأحذيتي دائما تترتب
عساني أصاب بالعمى؛
إن كذبت
ثمة رجل آخر سيأتي؛
رجل آخر،
رجل أفضل؛
رجل ليس مثل أي رجل آخر
هو المثل كما ينبغي أن يكون؛
قامته أعلى من أشجار بيت المعمار
ووجهه؛
أكثر بياضا حتى من وجه إمام الزمان،[1]
واسمه؛

(١) تقصد الإمام محمد المهدي، الإمام الثاني عشر؛ الذي يعتبره الشيعة غائبًا منذ ١٢٠٠ سنة تقريبًا.

إذ تُناجيه أمي؛
قبل وبعد الصلاة:
يا قاضي الحاجات
يستطيع أن
يقرأ كل حروف الصف الثالث الصعبة،
بعيون مغمضة
لقد كنست درج السطح
وغسلت زجاج النافذة أيضا؛
فثمة رجل سيأتي،
ويقسم شراب السعال،
ويقسم رقم دار المرضى؛
ويعطينا سهمنا
لقد رأيت حلما ...[1]

أخرجت سايه أصابعها من شعري، وشبكتها للحظة في أصابعي، ثم وضعت يدها على جبهتي، وبعد ذلك على عينيَّ اللتين تحرقانني الآن، بعد أن ملأتهما الدموع فجأة.

(١) قصيدة بعنوان: «رجل ليس كأي رجل»؛ للشاعرة الإيرانية الأشهر: فروغ فرخزاد.

١٧

عندما وصلنا أنا ومهرداد إلى المطعم؛ رأينا علي رضا جالسًا إلى طاولة ذات أربعة مقاعد، قريبًا من النافذة. كان يُنصت لحديث شابٍ يجلس بقُربه. يُحرك الشاب يديه بسرعة، ويتكلم بحماس، وعلي يُنصت إليه بانتباه. صبّ مهرداد لنفسه بعض الماء، وأوصيت أنا النادلَ، الذي أقبل على طاولتنا؛ بجلب أربعة صحونٍ من الحساء. جرع مهرداد كأس الماء، ودوّنت عنوان بيت پارسا على قطعة ورق لأعطيها عليًّا؛ حتى يذهب غدًا إلى منزله، ويبحث في حاسوبه. عندما كنت أكتب العنوان، صك مسامعي، لا إراديًا؛ بعض حديث الشاب مع علي؛ فذُهشت. هو سائق سيارة أجرة، لكنه يتحدث في أشياءَ لم أظن سائقًا مثله قد يُفكر فيها. رفعت عينيَّ ونظرت إلى مهرداد، لأرى رد فعله؛ فوجدته هو أيضًا قد أخذته الدهشة. كانت تعبيرات وجهه تُفصِحُ بأن وضعه لم يكن أفضل مني. ثمة ابتسامة باهتة تربض على شفتيّ عليّ، لكنها أخذت في الاختفاء شيئًا فشيئًا، مع استرسال السائق في الكلام؛ ليحلّ محلها القلق:

... رويدًا رويدًا بدأ كل شيءٍ يتضحُ لي، حتى استطعت استشعار وزن أعمالي؛ كأنه قيادة سيارةٍ في ظلام طريقٍ جبلي. يجب أن ينصبّ كُلُّ تركيزِك على المكان الذي تفترشه إضاءة مصابيح السيارة؛ على الأمتار المُمتدَّة أمام السيارة.

لا ينبغي النظر يسارًا أو يمينًا. يجب فقط القبض على المقود بقوة، والتحديق في الأمتار التي كشفها المصباح. ينبغي ألاّ تُكلم أحدًا أو تستمع لتفاهات المذياع. يتعيَّن عليك نسيان كل ما تمر به السيارة من سفح الجبل. إذا استمر الأمر على هذا المنوال؛ ستظهر لك المنعطفات الخطيرة، واحدًا تلو الآخر؛ ولن يعود ثمة خطر. ولكن إذا سعيت لتشتيت ذهنك في أشياء أخرى، سيكون عجزك جليًّا؛ فإما أن تسقُط بك السيّارة في قعر الوادي، أو تصطدم بصخور الجبل. حسنًا، لا يعني ذلك أني أخطأت. ليلة أمس عندما كنت عائدًا إلى بيتي، في «عباس آباد»؛ نادت عليّ امرأة لتوصيلها إلى «إلهية»؛ فدُست مكابح السيارة. كأن صوتًا قد همس لي: انتبه! خذ حذرك منها! ركبت المرأة في المقعد الأمامي، ولم تتفوَّه ببنت شفة حتى وصلنا إلى شارع «مير داماد» العريض.[1] هناك قالت: «لعنة الله على الدنيا، وعلى ناسها القذرين». قالت إنها تحلم بظهور رجل في حياتها؛ يحتزُّ رقبتها من الوريد إلى الوريد، ويُخلصها مما هي فيه. حافظتُ على صمتي، وإن كنت أيضًا لم أتعجب؛ فقد صادفت بشرًا من كل الأنواع. عندما انعطفتُ إلى طريق «مُدرِّس» السريع؛ قالت إن زوجها قال لها قبل سنتين إنه سيُسافر، ولا يعرف متى يعود. قالت إنه مُتسكِّعٌ سيء السمعة، وقد مرت سنتان منذ تركها هي وأطفاله الثلاثة في هذا الجحيم الذي لا نهاية له. قالت إنها متأكدة أن ذلك المخبول لن يعود أبدًا. فقلت لها: «إذا كنت تقولين ذلك لئلا تدفعي الأجرة؛ فأنا أعفيك منها». ثم أخبرتها إني عائدٌ إلى منزلي، ومستعد لتوصيلها، بلا مقابل؛ لأي مكان ابتغاء مرضاة الله. كنت أريد أن أعمل عملًا صالحًا؛ هذا ما جال بخاطري. فكرت ساعتها في الكلام

(١) تقع كل الشوارع التي ذكرت في شمال طهران، وهي من أرقى مناطق المدينة.

الذي قالته لي، وقلت لنفسي: «هذا وقته ياعباس»! سألتني: «لم تريد أن تفعل ذلك؟»، فأجبتها: «لوجه الله سبحانه، وابتغاء مرضاته»، فقهقهت بصوتٍ مُجلجل حتى اصطدمت جبهتها بلوحة المقاييس. قلت لها: «لا أعتقد أني قلت شيئًا مُضحكًا»، فأجابتني: «بالتأكيد ما قلته مُضحكٌ جدًا، هو حقًا مُضحكٌ جدًا»، وأضافت: «ماذا عليك لو طلبت من ربك هذا؛ أن يُنزّل من سمائه عدّة أوراق نقدية لهذه المسكينة؟». وشرعت بالضحك مرة أخرى، قبل أن ترتسم عليها سيماء الجديّة، وتقول: «مشكلتي أنا وجرائي[1] الثلاثة، لا تُحَلُّ بإعفائي من الأجرة التافهة أيها الشاب». بعد ذلك كشفت عن كتفيها، وسألتني: «ألا تريد أن تستمتع الليلة؟ هذا أفضل لكلينا؛ تستمتع أنت، وأحصل أنا على عدة تومانات.[2] هذا سيرُضي ربك أكثر من وجهة نظري؛ اتفقنا؟». انعطفت في أحد الشوارع الفرعية، وسألتها: «ماذا تعرفين عن الله؟»؛ أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها، وتأملت صورتها المنعكسة، ثم قالت: «سمعتُ أشياء، لكني لم أرَ شيئًا. وأتصور أن ذلك القرد زوجي لم يسمع بوجوده أصلًا. أنا أعرف أناسًا كثيرين لم يسمعوا شيئًا عن الله. وأظن أن الله لا يعرف الكثير عني أيضًا». ثم أنزلتْ زجاج نافذة السيارة، وأضافت: «إن كان يعرفني؛ فلم تركني بين يديّ ذلك الجاحد؟ لو كان يعرفني لما اضطررت أن أكون كل ليلة في مكانٍ ما، أسوأ من سابقه؛ من أجل خُبزي». ثم خنقتها العبرات، وقالت: «إن كان يعرف بوجودي لما اضطررت إلى الكذب كل يوم على أطفالي، والتذرُّع بذهابي للتسوق». أوقفتُ السيارة على جانب الطريق، وبحثت في

---

(١) إشارة إلى أطفالها.

(٢) جمع تومان؛ عملة إيران الرسمية.

جيوبي، وأخرجت كل النقود التي كسبتها طوال اليوم، حتى تلك اللحظة؛ ووضعتها في يدها. كُلّها ... حتى العملات المعدنية. وقلت لها: «تصوّري أن ربي سُبحانه أنزل إليك هذه النقود من عليائه»؛ فتسمَّرت للحظات كأنها رأت جانًا، ثم قبضت على النقود بقوة ونزلت مُسرعة من السيارة، وحدّقت في وجهي، وقد اغرورقت عيناها بالدموع؛ وقالت قبل أن تُغلق الباب: «قبّل عني وجه ربّك الجميل!». بعد اجتيازي عدّة شوارع؛ شعرت إني لست على ما يرام، ولم يكن ذلك بسبب المرأة المسكينة. لقد شعرت أن ثمّة شخصًا يوشك على الموت في مكانٍ قريب، ويحتاج للمساعدة.

جليٌّ أنه لم يكن هناك من يوشك على الموت، لكن شعوري تفاقَم بشكلٍ مؤلم. كنت أسمع صوتًا لا أتبيّنه؛ كأنه صادرٌ من قعرِ بئر. كأنهُ آتٍ من مكانٍ تكاثف ظلامه. كان صوتًا يُشبه طنين الذباب أو أنين الجُدجُد. وحين أمسى الصوت فوق طاقة احتمالي؛ أوقفت السيارة جانبًا، وترجلت. لم يكن ضوء الشارع كافيًا. ملأ الصوت رأسي حتى خُيّل إليّ أنه آتٍ من زاوية الرصيف. قصدت الرصيف، وأرهفت سمعي، وأنا أتمشّى بحذاء جدار. أخذت أُحدِّق في الأرض، وأمعن النظر في الحفر؛ كشخصٍ أضاع نقوده. حتى رأيت صرصورًا قد انقلب على ظهره، وأخذ يُحرِّكُ رجليه عبثًا محاولًا القيام، لكنه لا يستطيع. ثمة قطعة طعام في فمه قد تشبث بها. مددت يدي إلى الحفرة، وقلبته على بطنه؛ فخرج الصرصور من الحفرة مُباشرةً إلى ثُقبٍ قريب، حيث كانت تنتظره عدّة صراصير صغيرة، قرب الثقب؛ كأنها صغارٌ تنتظرُ أمها.

خنقته العَبَرات مع عبارته الأخيرة؛ فقام مُسرعًا باتجاه باب المطعم. نظرت أنا ومهرداد إلى علي. وكأن عليًا قد رأى مهرداد توًّا؛ فنهض عن كرسيه واحتضنه طويلًا بقوة، ولم يقول لا شيئًا. ثم مال على أذنه، وقال مُمازحًا: «I love you».

عندما جلب النادل أطباق الحساء؛ طلب منه علي أن يُرجِع أحد الأطباق. نظرت إلى عليٍّ، وسألته: «من كان صاحبنا هذا؟». ابتسم، وقال: «شخصٌ يستطيع سماع مُناجاة الصراصير وأنينها».

كان ردّه المقتضب يعني أنه لا يرغب في الإفاضة بتفاصيل أكثر حول سائق سيارة الأجرة. كما لم يكن هذا الموضوع يهمني. لم يكن يهمُّني حقًا. رّش مهرداد بعض الفلفل على حسائه، وقال: «العالم مُعقَّدٌ حقًا، وبقدر عدد البشر توجد فلسفات للحياة؛ وهذا يعني ما يقرُب من ستة مليارات فلسفة للحياة!».

تناولت ملعقة من الحساء، وسألت عليًا: «هل تُصدّق كلام ذلك الرجل حقًا؟». مسح فمه بالمنديل، وقال: «ها قد عُدتَ ثانية». قلت: «أنا جاد. هل تعتقد حقًا أن صاحبك قد سمع صوت الصرصور؟». فأجاب: «إن تصديقنا أو عدمه لن يُفيد شيئًا أبدًا. هو يتصور أنه قد سمع، وفي ظاهر الأمر لا يوجد أي شاهد لتأييد أو نفي هذا الكلام إلاّ هو. لذا من الأفضل أن تشغل نفسك بحسائك».

حين يُريد علي تجنُّب إجابة سؤالٍ ما؛ يعرف جيدًا كيف يفعل ذلك. نظر إلى مهرداد، وقال: «مرحبًا بك في إيران».

أزاح مهرداد الحساء جانبًا، وقال: «لم أتصور أبدًا أن نجتمع ثلاثتنا، ونأكل معًا يومًا ما. ولكن ما من أحد يستطيع التنبؤ بالمستقبل؛ هذه أيضًا إحدى دلائل تعقُّد العالم!».
نظر إليه علي، وسأله: «أحقًا تعتقد أن العلم معقد؟».

غرز مهرداد أصابعه في شعره، وأجاب: «لا زلت في الحقيقة، كما كنت في المرحلة الثانوية؛ أسير الأسئلة المعقدة: ماذا يجب أن أفعل؟ ومن أين أبدأ؟ أقصد أني ما زلت لا أعرف بالضبط ماذا يجب أن أفعل وماذا يجب ألا أفعل. حتى أني لا أعرف عم أبحث. ربما لهذا السبب عندما يطرأ حادث في حياتي؛ لا أستطيع إقناع نفسي بأنه حقيقي، فأفقد السيطرة على الوضع برُمَّته».

كنت سعيدًا لأن مهرداد بدأ يتكلم أخيرًا، فقد حطَّم موضوع جوليا نفسيته بصورةٍ كاملة، وربما كان البوحُ أفضل طريقةٍ لتخفيف الضغط الذي يُثقل كاهله. أنا قلقٌ عليه حقًا، وعندما هاتفت عليًّا ليلة أمس، لتحديد موعد عشاء اليوم؛ أخبرته بموضوع جوليا بشكلٍ مُفصَّل، وطلبت منه التخفيف عن مهرداد قدر استطاعته.

قال علي: «أوافقك على أن العالم يبدو مُعقَّدًا للوهلة الأولى، لكني لا أظن أن حل أُحجياته مُعقَّدٌ بذات الدرجة، بل على العكس؛ أعتقد أنه بسيطٌ جدًا».

وضعت ملعقتي في الصحن، وسألت سؤالًا غير مُباشِر: «ماذا تقصد بالبساطة؟ هل لك أن تُخبرنا عن تلك الطريقة البسيطة، وتخلصنا من هذا الجحيم؟».

ملأ علي قدحه بالماء وصمت لدقيقة، ثم قال: «الوجود طبقاتٌ بعضها فوق بعض، ودهليزٌ في داخله دهاليز؛ إنه مليءٌ بالأسرار ومعقدٌ بطبيعة الحال. ولفهمه؛ يلزم أن تصير إنسانًا صالحًا، هكذا فحسب. إن جوابي على هذا السؤال الصعب هو: الصلاح. فأنا أعتقد أن بمقدور أي شخص، في أي موقع؛ معرفة مبلغ استطاعته، وأفضل ما يُمكنه عمله، لكن الأزمة تظهر عندما لا يريد الإنسان اختيار الصلاح. في هذه الحال يكون قد جعل من طريقه متاهة غير واضحة المعالم. وإذا استكبر في المرحلة التالية، ولم يُرد التسليم للصلاح؛ سيُمسي طريقه أكثر التباسًا وإظلامًا. إن حياتنا ستضطرب وتُظلم عندما نختار ألف خيارٍ طالحٍ، بدلًا من ألفِ خيارٍ صالحٍ؛ ساعتها قد لا يستطيع المرء أن يخطو خطوة واحدةً إلى الأمام. إن كل خيارٍ صالحٍ هو كالسير في الضباب؛ كلما خطوت خطوة اتضح الطريق أكثر. لحُسن الحظ أن الوجود سخي بحيث يهبك دائمًا فرصًا مُتجددة، لتبدأ من الصفر. فإذا كنت بصدد خيارٍ واخترت الصالح، سيتضح لك الطريق قليلًا. وفي المرحلة التالية قد تواجه شروطًا أكثر تعقيدًا؛ تُملي عليك الاختيار مرة أخرى. هذه الخيارات مثل الدهاليز المتداخلة؛ ستجدها دائمًا في طريقك. ومع كل خيار ستزداد سُرعتك، كل خيارٍ صالحٍ سيزيد سُرعتك أكثر وأكثر، بحيث تستطيع أحيانًا التقدُّم بسرعة الضوء، وفي المقابل؛ كل خيار طالح سيُقلل من سرعتك. وأولئك الذين يُقدِمون دائمًا على الخيارات الطالحة؛ سيصير وضعهم مؤسفًا بعد مرحلةٍ قصيرة. سيتباطأ مسيرُهم حتى يتوقفوا تمامًا، ثم يشرعون بالغوص؛ يغوصون في مُستنقع خياراتهم حتى يُدفنوا بالكامل. لهؤلاء الناس بالطبع فرصة للنجاة، ولكنهم مضطرون إلى المكابدة لوقتٍ

أطول حتى يعودوا إلى السطح ثانية. إن الحياة مواجهة أبدية للبشر مع خياراتهم».

كان مهرداد قد ضم قبضتيه، وغرق في تأمُّل عليّ.

أضاف علي رضا: «لحسن الحظ؛ تمييزُ الصالحِ سهلٌ دومًا، برغم أن تنفيذه ليس بالسهولة نفسها. إلا أنه مع كل فعلٍ بسيطٍ صالح؛ يُمسي الإنسان أكثر خبرة وتركيبًا. إن هذه الأفعال البسيطة، التي يستطيع كل امرئٍ تمييزها بسهولة؛ هي مثل اللبنات المتراصّة التي ستُشكل في النهاية بناية كبيرة مُتشعّبة. والركن الأهم هو متانة الأساس، حتى يُمكن أن ترتفع فوقه باقي الطوابق. إن أي شخص في أي مكان وتحت أي ظرف، يعرف ما إن كان العمل الذي يعمله صالحًا أم لا. إن من تمرَّس بالأعمال الصالحة؛ سيبدأ شيئًا فشيئًا يستشعر وزن العمل الصالح. وسيستطيع تمييز الأكثر صلاحًا من الأصلح. إن من يعمل ويكد فقط، هو من سيُمسي تدريجيًا أحد أوتاد الأرض. شخص مثل هذا لا يستطيع سماع صوت الصراصير فحسب، بل إدراك تصوّراتها أيضًا! ومثل هذه القدرة ليست للتباهي، فهي أقل ما يستطيعه أمثال هؤلاء. إذ يستطيعون علاج المرضى من البشر في الطرف الآخر من العالم. إن هؤلاء البشر قد تعلّقوا كُليًا بالوجود الأكمل، وتجرّدوا بذلك من الحول والقوّة؛ فتيسَّر لهم كل فعلٍ بصورة شبه مطلقة».

كان علي قابضًا على طرفي الطاولة بشدة، وقد احتقن وجهه. كان قابضًا عليها كأنه يحميها من عاصفة ستذروها.

- إن الإنسان ليس سوى مجموعة من الأفعال. والوزن المعنوي لأي إنسانٍ؛ هو مجموعُ أوزانِ تصرُّفاته. إن كل خيار من خياراتنا هو خطٌ نخُطّه على الصفحة البيضاء لوجودنا. وهؤلاء الذين اختاروا خيارات طالحة، قد أنفقوا حياتهم في رسم مجموعة من الخطوط المتداخلة والمعوجة؛ خربشات لا تحمل أي معنى واضح. أما أصحاب الخيارات الصالحة، فستُثمِرُ أفعالهم خطوطًا ذات معنى؛ لوحة في طور الرسم.

لم يتكلم أينا أثناء الطعام. وبعد العشاء أشعل مهرداد سيجارة، وسأل عليًا إن كان يعرف أحدًا ممن تعلّقوا بالوجود الأكمل؛ ويقبل علاج امرأة مريضة في ذلك الطرف البعيد من الأرض: فلوريدا الأمريكية.

التقت نظراتنا أنا وعلي للحظة؛ فهززت رأسي موافقًا. فأجاب: «أعرف». صمت قليلًا، ثم أضاف: «لكن يلزمك التسليم أولًا؛ يتعيَّن عليك الإيمان بالقُدرة وطلاقتها أولًا. إن الله موجود لكل شخصٍ بقدر إيمانه به. إنها علاقة بين طرفين. إن مولى البعض لا يستطيع تهيئة عملٍ بسيطٍ لمؤمنه أو حتى شفاء زكامٍ تافهٍ. والمؤمن بإلهٍ كهذا؛ لا يتجاوز طموحه مثل تلك الأعمال الصغيرة. إن إله الراعي[1] الذي جادل موسى عليه السلام ليس مثل إله موسى وإبراهيم بالطبع. وإله إبراهيم عليه السلام، الذي طمأنه إيمانه به للمُكث في النار ووضع السكين في رقبة ابنه، في تسليمٍ كاملٍ؛ أكبر وأقوى من إله ذلك الراعي بالطبع. وإله الإمام علي عليه السلام فوقهم جميعًا. فإذا كان إبراهيم يحتاج إلى

(١) جدل الراعي مع كليم الله موسى عليه السلام من أهم قصص مثنوي جلال الدين الرومي، وأشهرها وأعمقها أثرًا في التراث العرفاني الفارسي. ولا يمكن اختزالها أو اختصارها؛ فهي حافلة بالإشارات والدلالات التي تستحق التوقف أمام تفاصيلها. (الناشر)

معجزة ليطمئن قلبه، وموسى يحتاج إلى تجلي الله على جبل الطور؛ فإن عليًا لم يشُك لحظة في قدرة مولاه، وكان دائمًا يُردد: لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينًا. وإذا استطعنا فقط التعلُّق بأذيال الإمام علي؛ سنكون من المفلحين. وللأسف؛ فغير المؤمنين لا مولى لهم».

نفض مهرداد رماد سيجارته في منفضة السجائر، ثم قرّب زجاجة البيبسي الفارغة من فمه، ونفث دخان السيجارة فيها. تلوَّى الدخان داخل الزجاجة، حتى وصل إلى قعرها. كان علي يتطلع إلى الطاولات والمقاعد الخاوية في أنحاء المطعم، حين اقترب النادل لرفع الصحون الفارغة من على طاولتنا. كنا صامتين كأن على رؤوسنا الطير. وضع مهرداد علبة سجائره في جيب قميصه، وحدقت أنا في زجاجة البيبسي الفارغة، والدخان يخرج من فوهتها بهدوء. كان علي لا يزال مُمسكًا بطرف الطاولة، وهو لا يحرك ساكنًا. رفع النادل الصحون الفارغة، ووضعها بعناية على الصينية، ثم وضع زجاجات البيبسي الفارغة واحدة تلو الأخرى على الصينية. ولكن عندما امتدت يده إلى تلك الممتلئة بالدخان؛ سحب يده لا إراديًا، ثم عاد والتقطها؛ ووضعها على الصينية.

١٨

هاتفت والدة الدكتور پارسا صباحًا من المطار، وأخبرتها أني سأرسِلُ اليوم أحد أصدقائي للبحث في حاسوب الدكتور، واتصلت بسايه أيضًا؛ ووعدتها بعشاءٍ رومانسي بمجرد عودتي من أصفهان. سألتني ما إن كنت قد حصلت على إجابة من عليٍّ، لسؤالها عن موسى؛ في الليلة الماضية؟ أمعنت النظر في إعلانٍ إلكتروني لإحدى الشركات المنتجة للمنظفات، والذي يبث في صالة الانتظار بالمطار؛ وأجبتها: «بالطبع. قال إنه قد قرأ في كتابٍ ما؛ أن القصد من النعلين هو تحرُّر موسى ﷺ من حُبه لزوجته بشكل خاص، ومن حبه للدنيا بشكلٍ عام». ويبدو أن سايه قد اقتنعت، وإن لم أكن أنا مُهتمًا بالأصل. قصدتُ زاويةً مُنعزلة في الصالة، وأخرجت دفتر يوميّات پارسا من حقيبتي، ورحت أتصفح أوراقه.

السبت؛ الثاني من يناير ثلاثة وتسعون

انتهيت اليوم من الفصل الرابع من كتاب: «التحليل الرياضي للمفاهيم الإنسانية»؛ إذا اشتغلت بهذا المعدل يُحتمل أن ينتهي الكتاب بعد ثمانية أشهر. غايتي من هذا الكتاب هي بيان قابلية المفاهيم الإنسانية للقياس، مثل الكميات الفيزيائية؛ بغير أن تفقد معناها. وفي حقيقة الأمر؛ فأنا أسعى إلى ربط العلوم الفلسفية والعلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، بل مزجها معًا.

الأربعاء؛ السادس من يناير

أنا راضٍ عن عملي في هذا الفصل الدراسي؛ لديّ طُلابٌ مُجدّون، خصوصًا في صف فيزياء الكم. الكل مهتّم بمبادئ الفيزياء الجديدة.

تزداد الفواصل بين تواريخ اليوميّات شيئًا فشيئًا.

الخميس؛ الحادي والعشرون من يناير

كل يومٍ عطلة! عطلة آخر الفصل، عطلة أول الفصل، عطلة بعد عطلة، أيام عُطلٍ عبثية! اليوم ليس بي رغبة للعمل في كتابي؛ يُحتمل ألاّ ينتهي الكتاب في التاريخ الذي توقعتُه.

تُذيع مُكبرات الصوت تنبيهًا للمسافرين إلى أصفهان، للتوجُّه إلى المخرج رقم «٤»؛ للصعود إلى الطائرة.

استغرق الأمر عدّة ساعات، حتى وجدت شُهره بنيادي عن طريق إدارة الجامعة. أخذت أذرع الممر الذي يضُم قاعة المحاضرات، حتى تنتهي محاضرتها، وعندما انتهت سألت عنها إحدى زميلاتها؛ فأشارت إلى فتاة نحيفة شاحبة الوجه، تحمل بيدها كتابًا، وتتكلم مع أخريات في مؤخرة القاعة. عندما أمست وحدها تقدمت إليها، وسألتها: «آنسه بنيادي»؟

- من حضرتك؟

- أنا يونس فردوس؛ جئت من طهران خصيصًا لأسألك عدّة أسئلة، لاستكمال أطروحتي.

اندهشت بعض الشيء؛ ثم سألت: «تريد أن تسألني أنا؟ أية أسئلة؟».

- أطروحتي عن الدكتور محسن پارسا.

تجلّى في ملامحها القلق، عندما سمعت اسم پارسا. وضعت الكتاب في حقيبتها وتهيأت للانصراف؛ قائلة: «اعذرني، فأنا في عجلة من أمري اليوم. يجب علي العودة إلى المنزل».

- عفوًا؛ لن آخذ من وقتك الكثير، فقط دقائق معدودة؛ عندي بضعة أسئلة.

- اسمع يا سيدي، أنا لا أريد الكلام في هذا الموضوع أبدًا.

سُمعت همهمة الطلاب من الخارج، ولم يكن سوانا في القاعة.

- ... بالطبع لكِ مطلق الحريّة. لكنّي لستُ صحفيًا، ولا قاضي تحقيق؛ أنا طالب مثلك تقريبًا، وأكتب حاليًا أطروحتي للدكتوراه.

- قلت لك لا أريد الكلام في هذا الموضوع.

- بطبيعة الحال لا يُمكنني إكراهك على ما لا تريدين، ولكنكِ تُقدّرين موقفي حتمًا؛ فأنا طالبٌ مثلك، وإن أردت الصدق؛ فقد ندمت على اختيار أطروحتي عن التحليل الاجتماعي لهذا الموضوع اللعين. لكن سبق السيف العذل، ولم يعد بمقدوري تغيير موضوع الأطروحة. لقد علقتُ.

يتكاثف إحساسي بالعبثيّة؛ فأنا أتوسّل لشخصٍ أراه للمرة الأولى، من أجل موضوعٍ ليس له أيّة أهمية بالنسبة لي. شعرت بالاشمئزاز مما آل إليه وضعي. أرسَلت شُهره بنيادي نظرها من النافذة؛ لقد تكاثفت الغيوم في السماء، فأظلمت قبل الغروب.

- لقد أُجريت تحقيقات مطوّلة ومستفيضة في قضية الدكتور پارسا، وأعتقد أن مطالعة ملفه القضائي ستُساعدك كثيرًا.

- لقد اطلعت على الملف، ولم أجد فيه شيئًا ذا بال. أنا أبحث عن الدوافع الاجتماعية لهذا الانتحار.

جلست شُهره على أحد مقاعد الصف، وقالت: «كنت أتصور أني قد تخلصت من ملاحقة هذا الموضوع اللعين، عندما جئت إلى أصفهان؛ ولكن...».

سكتت، وضغطت صدغيها بيديها من تحت خمارها.

- لقد تحدثت إلى كل طلاب الدكتور، يا آنسة بنيادي...
قاطعتني في عصبية: «كلهم جميعًا؟ حتى مهتاب كرانه؟».
- كلهم ما عدا الآنسة كرانه، لقد التقيت الجميع. الآنسة كرانه في إجازة الآن، وسألتقيها هي الأخرى حال عودتي إلى طهران؛ فهل تعرف الآنسة كرانه شيئًا؟

ما إن انتهيت من سؤالي، حتى شرعت بالبكاء. شعرت بالارتباك؛ فقلت لها: «أنا آسف. لم أُرِد مُضايقتك أبدًا، حقًا لم تكن هذه نيّتي».

مسحت دموعها، وأضافت: «كان هذا خطئي أنا. لم يكن يجدر بي التدخُّل في هذا الأمر. لقد عادت مهتاب مع أبويها من أمريكا قبل سنتين؛ أمها طبيبة أسنان من أطلانطا، وأبوها يعمل في تجارة السجاد وتصديره. وقد قُبلنا معًا في شعبة الفيزياء. كنت أنا الصديقة الوحيدة لمهتاب».
- أولستِ كذلك الآن؟
- بلى، ولكن...

عاودت البكاء مرة أخرى؛ فسألتها: «هل تفضلين الخروج إلى الهواء الطلق؟».

- مممممم...

رحنا نجوب الشوارع بلا هدف. قلت لها: «كنت في بيت الدكتور پارسا بالأمس، ومعي دفتر يومياتِه؛ أتحبين أن تلقي نظرة عليه؟».

- كلا، لا أستطيع ذلك.

- ألا تريدين الكلام عن مهتاب؟

- كلا، ليس الآن.

أمسى الجو باردًا، وكانت الغيوم تبرُق أحيانًا في الأفق، وبعد قليل دوى صوت رعدها في المدينة. رفعت ياقة معطفي إلى أعلى، وسألتها: «عندما حضر الدكتور پارسا إلى الصفّ آخر مرّة، يوم الأربعاء التاسع من تشرين الأول؛ ألم تُلاحظي شيئًا غريبًا في تصرفاته؟».

- كلا، فقد كان الدكتور پارسا إنسانًا رزينًا وقورًا، ولم يكُن يُظهر انفعالاته أبدًا.

توقفت شهره فجأة على الرصيف، تحت لوحة من النيون تُضيء وتنطفئ؛ وقالت: «حسنًا! صار الدكتور پارسا مُغرمًا بمهتاب، ولكنه لم يستطع أو ربما لم يعرف كيف يُظهر لها حبه، وقد كانت مهتاب هي الأخرى باردة ورزينة. في إحدى المرات امتحننا الدكتور، وحصلت مهتاب على أعلى درجة في المجموعة؛ فكتب پارسا على ورقتها: أنا سعيد، سعيدٌ جدًا. في بادئ الأمر كلما كان اهتمام الدكتور بمهتاب يزداد؛ كانت هي تُبدي اهتمامًا أقل. هي مُتحجّرة القلب. لكنها أغرمت بپارسا في نهاية المطاف».

عبرنا شارع چهار باغ،[1] وسألتها ونحن في وسط الشارع: «وهل كانا يتواعدان سرًا؟».

- نعم. مرة واحدة، وكان ذلك بإلحاح منّي؛ لذلك أجد نفسي مُذنبة. كان الدكتور پارسا قد أخبر مهتاب بحبه. قال لها إنه شعورٌ جديد عليه بالكُليّة، وبرغم أنها المرة الأولى التي يُحب فيها إنسانًا إلى هذا الحد، لكنه يعتقد أن شعوره لا علاقة له، من قريب أو بعيد؛ بالعشق وتفاهاته. لم أفهم شيئًا من كلام پارسا، في حقيقة الأمر؛ إذ كيف تُحب شخصًا ولا تُتيم به؟ مثلًا، كان پارسا يقول لمهتاب إنه يحب الاستماع لصوتها. وأنها عندما تتكلم؛ يستمع لصوتها فقط وليس لكلامها. كان يقول إنه يعشق الاستماع لصوتها لعدّة ساعات متواصلة، بغير أدنى أهميّة لما تقوله، لدرجة استعداده لسماعها توبّخه ألف مرة؛ إن مكّنه ذلك من لذة الاستماع إلى ذات الحروف ألف مرّة بصوتها ونبرتها ولحن كلامها. الشيء الوحيد الذي أستطيع الجزم به هو أن حب پارسا لمهتاب كان حُبًا غريبًا. على سبيل المثال؛ قالت لي يومًا أن الدكتور أخبرها هاتفيًا أنه يفضل التحديق فيها لعدّة ساعات، على لمس يديها. قال لها أن وجوده قد امتزج كُليًا بروحها، وأن حبّه لها قد فاض لدرجة أنه لا يريد الزواج بها أبدًا. كانت تُخفي عنّي خطاباته لها. لكنها أعطتني إحدى رسائله مرة واحدة فقط، ولا تزال عندي؛ أتريد أن تطلع عليها؟

- بالطبع.

(١) تعني: البساتين الأربعة، وهو اسم مقام موسيقي كذلك.

أنزلت الآنسة بنيادي حقيبتها من على كتفها، وأخرجت منها ورقة مطوية؛ وناولتني إياها. قرأت نص رسالة پارسا، وأنا أسير بين آلاف الأشخاص الغارقين في مشاهدة واجهات المحلات البراقة:

ليتني كنت صخرة، قطعة خشب، حفنة تراب. ليتني كنت زبالًا، خبّازا، خيّاطًا، بائعًا متجولًا، طبيبًا، وزيرًا، ماسح أحذية. ليتني كنت شخصًا آخر لا يعرفك. ليت قلبي كان حجرًا. ليتني لم أملك قلبًا قط. ليتني لم أوجد قط. ليتك لم تكوني موجودة. ليت بإمكاننا محو كل شيء بماسحة السبورة. آه يا مهتاب! ليتني كنت لبنة في جدار بيتك، أو حفنة تراب في حديقتك. ليتني كنت قبضة مزلاج باب غرفتك، حتى تلمسيني كل يوم ألف مرة. ليتني كنت عباءتك. كلا؛ ليتني كنت يديك. ليتني كنت عينيك. كلا؛ ليتني كنت رئتيك، لتدخلي في أنفاسك وتخرجيها مني. ليتني كنت أنتِ. ليتك كنتِ أنا. ليتنا كنا واحدًا؛ شخصًا مُثنى.

عندما انتهيت من قراءة نص الرسالة؛ شعرت بأن روحي قد أُلقيت من حالق، من سطح بناية ذات ألف طابق؛ وأفعم وجودي بألمٍ غريب.

- بعدها وقع ذلك الحادث المخيف. ومرضت مهتاب ولزمت الفراش، ثم فقدت توازنها.

بدأ رذاذ المطر يُداعبنا؛ عندما وصلنا إلى الساحة الكبيرة التي ينتهي عندها شارع چهار باغ. أعطيتها الورقة وسألتها: «ماذا قصدتِ بفقدانها توازنها؟». وضعت الورقة في حقيبتها، وقالت: «كان لموت پارسا أثرٌ مُدمِّرٌ عليها. أعتقد أنها علقت في ذكراه؛ في مكانٍ ما حيث تهيم روحه. لم تستطع التخلُّص من الذكرى، فأخذت الكوابيس تُداهمها. وقد ساءت حالتي النفسية أنا

الأخرى، بعد تلك الحادثة؛ فانتقلت إلى أصفهان بناء على نصيحة الطبيب النفسي، لأبتعد عن مهتاب، ومحيط الجامعة، وكل ما يُذكّرني بپارسا. هاتفتها مرة واحدة فقط، وفي وسط كلامها، وبشكل لا إراديّ؛ شرعت تتحدث باللغة الإنكليزية. كانت كُلّما هاجت عاطفتها تكلمت بلغتها الأم، فذاك أسهل لها».

اشتد المطر؛ فتبللت ثيابنا بالكامل. شكرت شُهره بنيادي، وقلت لها إنني لن أنسَى مُساعدتها أبدًا؛ ولم أنسها حقًا. على الرصيف كان الناس يحملون مظلاتهم؛ وفجأة انفتحت آلاف المظلات السوداء فوق رؤوس السائرين. بعضهم كانوا اثنين تحت مظلة واحدة. وضعت يديّ في جيبي معطفي، ودون أن أفكر بالمرض أو الزكام أو أية أشياء من هذا القبيل؛ سرت تحت المطر، وأنا أتنفس بعمق، وأفكر بصوتٍ محضٍ، ليس لمحتواه أية أهمية.

١٩

عندما وصلت إلى طهران؛ قصدت مكتبي في مؤسسة البحوث الاجتماعية مباشرة، ومن هناك اتصلت بمهرداد. قالت أمه إنه ذهب مع عليٍّ إلى مكانٍ تشابه عليَّ اسمه. ظننته مسلخًا أول الأمر، ولذا سألت باستغراب: «مسلخ؟!». قالت: «مَشهَد![1] ذهب مع علي إلى مشهد؛ للزيارة».

استغربت كلامها جدًا. إذ لو قالت أنهما ذهبا سويًا إلى جزر هاواي؛ لكان الأمر أكثر قابليّة للتصديق! أغلقت الخط واتصلت بسايه؛ فقالت إن عليًا طبع عدّة ملفات من حاسوب الدكتور پارسا على ورق، وتركها عندها في مظروف. قلت لسايه أنني أطمع بالانتهاء من هذا المشروع قريبًا، وأن نتزوج بعد شهرٍ حين أنجو من هذا التيه. سألَت بمكر: «حقًا؟ هل ستنجو حقًا؟»، نظرت إلى صورتها الموضوعة تحت زجاج مكتبي، وطلبت منها أن تضع أصابعها على السماعة. عندما فَعَلَتْ ذلك؛ قَبَّلْتُ سماعة الهاتف. ثم قلت: «شكرًا، كان هذا رائعًا، رائعًا جدًا».

---

(١) «مشهد»؛ من كبريات مدن إيران وأعظم مدن إقليم خراسان، وقد اشتهرت قديمًا باسم «طوس»؛ فتحت في عهد عثمان بن عفان ﷺ. وهي مشهورة بكثرة الآثار والمزارات والمقامات، وأهمها على الإطلاق مرقد الإمام «الرضا»؛ وهو الإمام الثامن، من آل البيت النبوي؛ عند الشيعة الإمامية. ويقصد الشيعة مشهده للزيارة والتبرُّك. وهي مدفن «هارون الرشيد» العباسي. (الناشر)

- أأصبحت رومانسيًا؟
- أحبك يا سايه، أحبك جدًا.
- أنا راضية من كل الدنيا بهذا الحُبّ الكبير. حتى إذا لم نتزوج أبدًا، لكنك ظللت تحبني؛ فأنا راضية. أنا راضية بحُبّك.
سألتها: «لماذا؟ لماذا تقولين ذلك؟ لماذا تظنين أننا قد لا نتزوج؟ هل قال والدك شيئًا؟».
- ليس لأبي علاقة بالموضوع، ولكني أعرف أن قدرة الله أكبر من إرادة أبي وأمي، ومن إرادتنا نحن بطبيعة الحال. قال الله لموسى ﷺ؛ إني أضحك من موقفين: عندما أقضي أمرًا وأرى السعي العبثي لعبادي لرد قضائي، وعندما لا أريد لشيء أن يقع وأرى بعضهم يستميتون لإنجازه.

انتابني خوفٌ وصرتُ عصبيًا. حاولت السيطرة على نفسي، وسألتها: «أوقع شيء؟ إذا كان هناك شيء فأريد أن أسمع به الآن. حتى إذا كنت قد غيّرتِ رأيك فيَّ وفي مستقبلنا؛ أريد أن أسمع ذلك الآن».
نقلت السماعة إلى يدي الأخرى وانتظرت، لكن سايه لم تقل شيئًا.
- سايه! أمازلتِ على الخط؟
- لم يتغيّر فيَّ أي شيء، وأتمنى ألا يكون شيئًا قد تغيَّر فيك أنت الآخر يا يونس.

لففت سلك الهاتف بين أصابعي، وأجبتها: «أنا مازلت أحبك، مثلما أحببتك دومًا بالضبط».
- أنا أيضًا أحبك، ولكني فقط قلقة بعض الشيء.

- من أي شيء أنت قلقة؟ سايه؛ ماذا أصابك؟
- أنا آسفة، حقًا آسفة. لكن لا يُمكن أبدًا تغييب الله عن حياتنا. قد ننساه لفترة، ولكن لا يُمكننا تجاهُل وجوده للأبد. بالنسبة لي أنا على الأقل؛ فإن هذا يعني تجاهُل الحياة نفسها، وعندما نتجاهل الحياة، فهذا يعني أننا حتمًا مُقبلون على الموت، ألا توافقني؟
- لن أُكرهِك على أي شيء.
- لكني لا أستطيع الحياة مع ميت. برأيي أنك إذا تجاهلت وجود الله يا يونس؛ فلن تختلف كثيرًا عن الموتى. حسنًا، هذه طريقة تفكيري، أو بعبارة أدق: أنا أؤمن بأن الله هو منشأ الحياة ومُنشئها، وإذا انفصل كائنٌ عن هذا الينبوع؛ فستغيضُ الحياة فيه.

وضعت السماعة بقوة. كانت أصابعي ترتعش من الغضب. لم أكن أريد سماع كلمة زائدة. شعرت أن سايه تُقحم، دون داعٍ؛ الأسئلة الوجوديّة الكُبرى في علاقاتها الاجتماعية. هي تُشبه عليًا من هذه الناحية، أكثر مما تُشبه أي شخصٍ آخر؛ وأنا لا أريد أصلًا أو لا أستطيع النظر للحياة من هذا المنظور.

عثرتُ على عنوان مهتاب كرانه في درج مكتبي، وحين أردت الخروج من الغرفة؛ دق الهاتف. ومثل من رأى وحشًا؛ نظرت إلى الهاتف مُتسمرًا، ولم أستطع التقاط السماعة. دق الهاتف عدّة مرات حتى خرس. جلست، وجعلت من يديّ عمودًا يحمل رأسي. دق الهاتف مرة أخرى؛ فرفعت السماعة هذه المرة بسرعة. إنها نفس الفتاة التي تصورتها قد أخطأت الرقم؛

تكلّمت هذه المرة بالفارسية، وكان واضحًا أنها تتحدث عن پارسا. جليٌّ أنها مهتاب كرانه. لقد قرأت الإعلان في الجريدة حتمًا، واتصلت عدّة مرات لتبوح لي بحقيقةٍ ما؛ الحقيقة التي يبدو أن الحديث عنها شاق جدًا عليها. ألصقت السماعة بأذني وصمتُ، لأغرق في حديثها. لكنّي لم أكن مثل پارسا، الذي غرق في صوتها؛ إذ كُنت أُنصت بدقة لما تقول:

«حاول كثيرًا أن يفهم كل شيء، لكنه لم يستطع. حاول أن يقيس كل شيء مُستعينًا بالفيزياء والرياضيات، وحتى بالفلسفة؛ لكنه أدرك فجأة أن ثمة أشياء في الكون لا يُمكن قياسها أو فهمها بوسائله التي اعتادها. ازدادت حيرته، وتقوقع على نفسه. محا كل حساباته القديمة وبدأ من جديد؛ احتسب كل الأجزاء، لكنه وجد شيئًا ما ناقصًا ومُبهمًا في القلب من هذه المعادلات. كانت معادلاته تتوقف عند حدٍ مُعيّن ولا تكتمل؛ فتفاقمت حيرته وازداد تقوقعه على نفسه. بحث في الطبيعة، وفي المختبرات، وفي المكتبات؛ لكنه لم يعثر للعنصُر الغائب على أثر. أراد أن يعود القهقرى، لكنه لم يستطع؛ كان الطريق الذي سار فيه مثل كرة الصوف: طرف خيطها غير واضح، بل مُعقّد ومُبهم. أراد أن يمضي قُدمًا لكنه لم يستطع؛ فالطريق مسدود. أمسى شديد العصبيّة، فازداد انحداره وتقوقعه أكثر. كانت فرصُه تتناقص وهو يذرع طريقه المظلم المسدود جيئة وذهابًا. يروح فيغوص، يجيء فيغوص أكثر. وفجأة؛ فقد كل ما كان قد وجده على ضآلته، فأضت الأسئلة أكثر وأكثر. ازدادت الأحجية غموضًا أكثر فأكثر؛ فأظلم ذهنه، وانطفأ نبراس روحه، وخيّمت الظُلمة على وجوده، فعمي وضاع من يده طرف الخيط؛ فغاص إلى الأعماق. وبدلًا من أن يُعالج المعادلة لحلّها كما اعتاد، صار هو نفسه سؤالًا صعبًا ومعقدًا هذه المرة؛ سؤالًا يتطلّب شخصًا آخر لحله، ووجدته أنا حينها. قال

لي أني حللتُه، وأني جواب كل أسئلته الصعبة. عندما عرف الجواب؛ رمى بكُل أدواته بعيدًا ليهرب منها، لكن ذلك لم يكف. كان مازال عليه الهروب والابتعاد. كان عليه أن يُفارق ذاته، أن يُكذِّب نفسه، ولكنه لم يستطع؛ فغاص أكثر. كان الحجر الذي يحمله ثقيلًا؛ فانكسر ميزانه واختلت نُظمه. ارتبك بشدّة وراح يدور حول نفسه ليتحرر، لكنه غاص أكثر، ونفد صبره. صعد، صعد إلى أعلى فأعلى، ولكن ذلك لم يكن كافيًا. ظل يصعد حتى غامت الرؤية تمامًا، ولم يكن ذلك كافيًا أيضًا، فانهار في ذاته؛ صار أصغر وأصغر، وسقط من ذلك الارتفاع، فتلاشى».

بكت مهتاب، ثم أغلقت الخط. خرجت من بناية مؤسسة البحوث، وقدت السيارة باتجاه بيتها. انقلب كلام مهتاب وسايه ضجيجًا في رأسي. أوقفت سيارتي، وترجّلتُ باتجاه منزل مهتاب. الآن صار يقيني أن انتحار پارسا ليس له علاقة بعلم الاجتماع؛ كنت أظن أن پارسا عندما قرر الانتحار قد افتقد دافعًا للاندماج الاجتماعي، وقد أوشكت الآن على الجنون من شدة اليأس، فمعنى هذه التطوّرات أنه ليس لدي أي مسوّغٍ لأطروحتي. أقف الآن أمام البناية ذات الخمسة عشر طابقًا، التي تسكن مهتاب كرانه في الطابق الثامن منها. لم أكن أريد إزعاجها بنكء جرح ذلك الحادث اللعين. وهل بقي هناك كلام ليقال؟ وبرغم أني لم أفهم شيئًا من كلامها، إلا أني شعرت بأنها قد قالت كل ما لديها على الهاتف. لدقيقة حدّقت بنافذة الطابق الثامن للبناية، ثم التفتُّ إلى السيارة. كانت الشوارع مألوفة لي بشكلٍ غريب. وفجأة؛ وقعت عيناي على البناية المقابلة لبناية مهتاب، فصعقت. كانت لوحة مصنع المبيدات الحشريّة المنزلية تتلألأ تحت الشمس على شرفة الطابق الثامن من البناية المواجهة لمنزل مهتاب.

٢٠

ذهبت صباحًا لآخذ مظروف مُذكرات پارسا من سايه. عندما فتحتْ باب الشقة، استغربَتْ لرؤيتي بعض الشيء. لم تدعُني إلى الدخول، فأخبرتها أني جئت لآخُذ مذكرات پارسا؛ فدخَلتْ إلى الشقة وعادت بعد دقيقة ومعها مظروف كبير. سلمتني إياه كأني شخصٌ غريبٌ تتمنّى رحيله. أردت أن أقول شيئًا، لكني بحثت عن الكلمات المناسبة؛ فلم أجدها.

قالت: «انتظرتك لسنوات. كنت دائمًا أنتظر في النافذة مُترقبة وصولك. وعلى أمل سماع صوتك؛ كنت أجيب الهاتف كلما تعالى رنينه. وشوقًا إلى رؤياك؛ كنت أفتح الباب كلما طُرِق. أنا مثل أي فتاة؛ كنت أحلم بالسعادة، واعتقدت أني سأنالها معك. لكن الحب يختلف عن السعادة. إذا خرج الله من بيننا يا يونس، فقد فصلتنا عن بعضنا البعض؛ فإما أن أنسى الله من أجلك، وإما أن أضحي بحُبك لله. وقد اخترت الطريق الثاني يا يونس».

سحبتْ العباءة على وجهها، وأضافت والعبرات تخنقها: «إن هذا أصعب عمل يُمكن أن يُقدم عليه المرء في حياته. آه يا يونس. إنَّ وأد حُبّي لك، ولو من أجل الحب الأكبر؛ يُمزّق نفسي. لماذا دفعتني إلى ذلك؟ لم يكن يجدُر بك

ذلك يا يونس، لم يكن يجدُر بك أن تُغرقني في حُبّك ثم تحطم كل شيء. لم يكن يجدر بك ذلك يا يونس. لم يكن يجدُر بك الشك فيمن عرّفنا وجمعنا. لقد دُست كل شيء يا يونس. أنا لا أعرف تلك الآلهة الأخرى المدّعاة، لكن لم يكن يجدُر بك هذا التطاول الشنيع على ربي وربك. بعدما عرفتك؛ كنت أثني عليه بعد صلاتي بما هو أهله، فهو ربّ الأرباب وملك الملوك. لا تقل أنك أنكرت الإحسان، وأسأت لمن أحسن إليك.[1] لا تقل أن هذه المعتقدات خرافات، فأنت تعرف خيرًا منّي أنه لولا إرادة الله، لفسخ أبي عقدنا مائة مرة حتى الآن! آه يا يونس. كيف سولت لك نفسك أن تتخذ الله وراءك ظهريا؟ إن ما فعلته لا يفعله الإنسان مع خادمه».

استسلمَتْ للبكاء. كنت أقف صامتًا، فقد أردتها أن تُفرغ كل ما في قلبها. قالت: «قلت لي مرة أنك رأيت، فيما يرى النائم؛ أنك قد ذهبت مع مونس إلى سهلٍ ما، وهناك سمعتما صوت الله يسألكما عم تبحثان؟ وقد أجبتَه أننا نبحث عنك؛ نحن نبحث عنك يا ربّ. فقال الصوت: لم يكن ثمّة داعٍ لقطع كل هذه المسافة في الصحراء للبحث عنّي. وأضاف الصوت: إني هناك عند مائدتكم الفارغة، وأثري في تجاعيد وجه أمكم، وفي سعال الجدة، وفي تغضُّن جبهة الجد، وفي آلام المرأة ساعة المخاض، وفي تشقُّق أكف الفقراء والمساكين. ورحمتي في ثنايا آمال الفتيات الحالمات بالفارس الذيّ سيختطفهُنّ على حصانٍ أبيض، ليُنقذهن من الفقر الذي علقن فيه؛ وفي النظرات الكسيرة خلف النظارات السميكة لأبٍ يائسٍ يجول بولده المريض على الأطبّاء، وفي

(١) في الأصل: «لا تكسر المملحة»؛ إشارة للمثل الإيراني الذي يعتبر كسر المملحة بطرًا.

براءة تلميذي مدرسة يتشاجران في الشارع لأجل ممحاة، وفي حيرة قلب رجل فقير خاوي الوفاض عليه العودة لبيته لكنه يستحيي من زوجه وأطفاله، وفي ترقُّب زوجة ميكانيكي السيارات التي تُحب أن يعود زوجها ليلًا إلى البيت بيدين مسودَّتين من أثر العمل؛ لتطمئن بالًا أنه كان يومًا شاقًا كسب فيه بعض النقود، ليكون أول ما تفعله تفحُّصها ليديّ زوجها لترى أغطّاهما سواد الرزق أم لا، وفي ذُل الزوج الذي يتوارى صامتًا في زاوية الغرفة لينام على جوعه إذا ظلت يداه نظيفتين، لكن صوت زوجته الذي يُهدهِدُ الأطفال بالكلام عن كرم الله ورحمته؛ يطرد النوم ويجعل مضجعه شوكًا يؤرقه. وفي محدوديّة أفكار ذلك الفيلسوف المسكين الذي يحاول إثبات وجودي؛ لكنه لا يستطيع. وفي اطمئنان صلاة الليل الطويلة لذلك العابد الذي لا يرتضي بخلوته معي الدنيا وما فيها. وفي حزن أبٍ مكلوم يوسّدون أمامه جسد ابنه الدامي، فينظر إلى عينيه باحثًا عن ابتسامتهما. وفي ضراعة حلق رضيع قد جف من العطش؛ فرموه بالسهام بدل أن يسقوه. وفي تسليم ذلك الأب، الذي يُعيد رضيعه إلى أمه بحنجرة ممزقة. وفي حنو التراب الذي يُهال على الشهيد. وفي دموع طفلٍ يبكي لأول مرة ألم فقد أبيه، وهو لا يستطيع حتى أن يفهم معنى اليُتم. وفي وحدة الناس وفي عجزهم. وفي العجز، وفي العجز، وفي العجز. وفي دعاء: دبّر لي يا ربّ، فإني لا أحسن التدبير. وفي ابتهاج الأطفال ليلة العيد، وفي فرحة العرائس، وفي حزن الأرامل الذي لا ينتهي، وفي لعب الأطفال، وفي الصداقة، وفي الصفاء، وفي النقاء، وفي التوبة، وفي التوبات المتكررة التي تتكسر دائمًا على صخور الضعف الإنساني، وفي الندم على الذنب، وفي الرجوع إليّ، وفي الإقرار بالإثم، وفي الوعد بالإقلاع عنه،

وفي الحب، وفي الذين هم جنة، وفي عليّ الذي هو جنة متحركة، وفي علي مرة أخرى، وفي صلاة علي، وفي دموع علي، وفي أحزان علي، وفي شفتي مونس التي تُقبّل تُربة الصلاة[1] ثلاث مرات يوميًا، وفي يدي سايه اللتين تفتحان المصحف الذي أهديته إياها كل صباح، وفي قلبك المزدحم، وفي معلوماتك غير المنتظمة، وفي سعيك الحثيث، وفي شكك، وفي مبتغاك، وفي حبك لسايه وفي...».

لم تستطع الاستمرار؛ فدخلتْ الشقة وأغلقتْ الباب. أحسستُ أنها تتكئ على الباب من الداخل ولا تستطيع الحراك، فوضعت شفتي على الباب، حيث تخيلتها وقد وضعت أصابعها؛ وقبّلت ذلك الموضع.

جلستُ في حديقة مهجورة، ورحت أفكر في انفجار سايه. كان عدد من الأطفال يُطلقون طائرات ورقية في السماء ... إني لم أغرز السكين في قلبي فحسب، وإنما أغرزته في صدر سايه أيضًا، فاللعنة على هذه الحياة! لماذا يعجز البشر، إلى هذا الحد؛ عن إدراك ماهية الوجود؟ أصحاب البسطات والباعة المتجوّلون والكنّاسون والخياطون والطباخون وباعة الشطائر وسائقو سيارات الأجرة وحتى الطلاب والفلاسفة وآخرون كثيرون؛ كيف يُدركون هذا الوجود المعقد؟ يحترق قلبي دائمًا على كثيرين ليست لديهم المقدرة على تحمُّل هذه الحياة. أناس جعلهم جهلهم عاجزين ليس فقط عن فهم الوجود

---

(١) «تربة الصلاة» أو «التربة الحسينية» هي طين مجفف أو حجر يسجد عليه المسلمون الشيعة في صلاتهم. إذ لا يجوز في مذهبهم السجود إلا على الأرض ورملها وترابها وحجرها، وما تنبته من غير المأكول أو الملبوس، وكذا لا يجوز عندهم السجود على المنسوج من أبسطة وأقمشة. وغالبًا يؤخذ هذا الطين من تربة كربلاء؛ حيث استشهد الحسين عليه السلام. (الناشر)

والبشر، وإنما عن إدراك أسباب المصائب الكبيرة مثل الفقر والمرض والموت. عندما يفقد الكنّاس طفله الصغير بفعل مرضٍ خطير، فهو لا يستطيع فهم أبعاد هذه الحادثة المريرة. وعندما تدهس سيارةٌ بائعا متجولًا وتحرمه، لآخر عمره؛ من ساقه، فإن البائع سيقضي باقي عمره بعذاب هذه العلة دون اعتراض، ولن يُفكّر في أن فُرصته الوحيدة في الحياة قد سُلبت منه إلى الأبد.

ربط الأطفال خيوطًا في طائراتهم الورقية، وركضوا يقطعون أحد ممرات الحديقة؛ ليُطلقوا طائراتهم. أخرجت مذكرات پارسا من المظروف، ورُحت أقرأ:

عندما أشرقتِ كنت هناك في الأعالي خلف الزجاج، غارقًا فيكِ. آه، كم كان موقعي في الأسفل خيرًا منه في أعلى. أنتِ لا تعرفين أي لعبةٍ غريبةٍ بدأتُ بها. كنت أنت تلمعين في الأسفل ككتلة زرقاء، حتى أصبحت أحسد كل أزرق اللون. امتطينا ذلك الحصان الأبيض غير المجنَّح سويًا، وكالمجنون كان يجتاز الشوارع الخضراء، ويعدّ ويشُم ويُنهي العد، ومرّة أخرى يعدّ ويُنهي العد، ويشرع بالعدّ ثالثة وينهي العد. كم كان قلبي صغيرًا ضيقًا، وكنت أريده أن يعدّ الشوارع ألف مرة لكي يكبر ويكبر ويتسع لك لتستقري فيه، ولكنه لم يكبر ولن يكبر. قلت لي اذهب إلى الجدار. كنت أريد أن أضربه بقوة ليتحطم إلى شظايا، فنتخلص من الحاجز؛ لكنك صرخت، ومن أجلك وقفت أمام الجدار عاجزًا، وحدقنا سويًا في علوه وسمكه وصلابته. كان يستهزئ بعجزنا وحقارتنا، وقد استولى عليّ العناد. بعد ذلك وَهبْتِني عينيك الخضراوين، وكم كانتا زرقاوين. ووهبتُ عينيّ لك، ومازلت لا تعرفين أي لعبة غريبة قد بدأت بها. ثم حدقت في يديك، ورأيت كل براءة الحياة فيهما، وارتعشت. كانتا زرقاوين مثل ماء البحر أو كقطعتين من السماء قد

وقعتا على الأرض، ثم بقلم أخضر قبلت كل قداسة هاتين اليدين الزرقاوين، وأدركت أننا قد عرفنا الله باللون الأزرق أيضًا.

استغربت أن يكون الدكتور پارسا قد كتب نصًا شاعريًا كهذا. قلبت الأوراق، وشرعت أقرأ نصًا آخر:

كلما شربتك ازداد عطشي أكثر، يا ريًا هو سبب عطشي! يا أمرّ حلاوة، وأخف الأثقال! أنتِ أكثر أفراح حياتي حزنًا، و أكثر سبب يفرح له حُزن وجودي. يا حادثة بسيطة معقدة! لم لا تحرقينني يا أبرد شعلة في الوجود؟! يا ريشة ثقيلة مُحَرَّرة من أكثر الطيور المهاجرة المجهولة في هذا الكون! أين مدينة الطيور؟

ثمة نص آخر تعود كتابته إلى الأول من أيلول؛ قبل أسبوع واحد من انتحاره:

في أحد هذه البيوت يضطرم قلبه، وإذا نظرت من سطح بيتك سترين لهيب النار ينبعث من نوافذ أحد البيوت. لقد جئت متأخرة قليلًا، من نهاية أحد الشوارع الطويلة ألقيت بظلّك، مثل ظل القلق. جئت متأخرة قليلًا، ولكنك تجليتِ بنورك فأحرقت قلبه. يطلبون إليّ ألا أقول شيئًا، نعم؛ لا ينبغي أن أفوه، ولكن قلبي اضطرم حتى استحال رمادًا. جئتِ متأخرة قليلًا، ولكنك قصدت قلبه مباشرة، وأرسلت يدك في صدره، وأخرجتِ قلبه، وكويته بنارك؛ ثم أرجعتِهِ مكانه. لهذا، احترق قلبه وصار رمادًا. ثمة من هو غارق في عينيكِ، ثمة من هو تائه في أخاديد أصابعك، ثمة من يضطرم بنارك. قلبه يضطرم. فلْيُلْقِ ملقٍ بقطرة ماء على قلبه ربما برد. من بين كل هذه البيوت، التي خرست؛ ثمة بيت يضم قلبه الذي استحال رمادًا. صار مهووسًا بالقفز إلى يديك، والغرق فيهما. يريد أن يراكِ. لا ، يريد أن يسمعكِ. يريد أن يقفز إلى صوتكِ. يريد أن يطير بك إلى

الأعالي ويُقيمك على قمّة الجبل، ثم يركض نازلًا إلى قعر الوادي لينظُر إليك من هناك. إنه يخشى رؤيتك من مسافة قريبة. ثمة من يُريد السباحة في عينيكِ. ثمة من يرتجف بردًا هنا، من صار وجوده كله شتاءً. ثمة من اختنق بعبراته، فهو على وشك الموت. عندما تتكلمين؛ لم يكن يستمع إلى ما تقولين، بل إلى صوتكِ؛ إلى صوتكِ فقط. إنه غارقٌ في صوتكِ، إن روحه محصورة. في أحد بيوت هذه الأنحاء يضطرم قلبه، فليُلقِ ملقٍ بقطرة ماء على قلبه ربما برد.

كانت طائرات بعض الأطفال الورقية قد حلقت في السماء؛ فتكاثفت ضجّة الأطفال على الأرض، حتى لم أعد أستطيع القراءة في تركيز:

كم كُنت مُتسرّعة! قلت لك: انصرفي، لكنك لم تنصرفي، وطرقتِ الباب. كفى، انصرفي! قلتُ لك: المكان هنا مزدحمٌ ثقيلُ الوطأة، ما من مكان لك هنا؛ لكنك لم تنصرفي، بل جلستِ وشرعت في البكاء، حتى ابتلّت وجنتاي أنا أيضًا. فتحت لك الباب وأريتك: انظري كم المكان مزدحم! وقد رأيت بنفسك ازدحام الفيزياء والفلسفة والفن والمنطق، والكتب والمجلات والجرائد والمساطر والحاسوب والأوراق، والكلام والكلام والكلام، والوحدة والتذمر والجراح واليأس والضيق والدموع والفوضى، والضباب والضباب والضباب، والظلام والصمت والخوف والحزن والغربة؛ كلها مختلطة، والقلب حائر جدًا، ثقيل أسود، ومزدحم. فقلتِ لي: ما من سرٍّ مكنون لديك! فسألتُك: سرّ؟ فأجبتني: أنا سرٌّ مكنون. وذهبت إلى وسط المساطر، ثم أعملت عيناك سحرها من بين إطارها الأخضر، فكأنما هو طوفانٌ يكاد يقتلع القلب من مكانه؛ فكنت أرى الكلام والفلسفات والكتب والمساطر والأوراق واليأس والظلمات والخوف والفوضى والضباب والجراح والضيق والغربة والحزن، أراها تنجرف مثل ذرات الرمال المتراكمة على قلبٍ وحيدٍ في الصحراء، وتذروها الريح مثل أوراق ممزقةٍ في يومٍ عاصفٍ. فأمسى

البيت مُرتبًا، واضيء نورُه خفيفًا هادئًا. وقبعت أنت في القلب، فسألتُك: ما أنتِ؟ فأجبتني: سرٌ مكنون!

ثمة رسالة من مهتاب تُخاطب پارسا، وقد كُتبت قبل ليلة من انتحاره:

أنا لا أعرف السحر؛ لقد اتسعت روحي الكبيرة الثقيلة فقط. أنا لا أعرف السحر. قلت أنك قد صرت شتاءً، فاحترق قلبي عليك، ونشرت روحي عليك؛ كبيرة ثقيلة كما تُنشر العباءة. وقرأت ورد الحب حتى احترقت. أنا لا أعرف السحر. صارت أنفاسك معدودة، وكانت روحي تنبض مع تنفُّسكَ. فقلت لي: «أحبك» ولم تعد تتنفس؛ فتوقف قلبي عن الخفقان. فساءلت نفسي: أأكون قد قتلتك؟ عسى ألا أكون قد مت. ورفعت روحي عنك، لكنك لم تكن موجودًا. كنت قد صرت مخفيًا. قلت لك أنا لا أعرف السحر.

تأمّلت الأطفال في الحديقة وهم يطلقون طائراتهم الورقية، فتتعالى صرخاتهم الجذلة من أعماق أرواحهم. لكنّ خيط طائرة أحدهم قد انقطع؛ فتقوقع في زاويةٍ وقد تملّكهُ حزنٌ شديد.

ثمة رسالة أخرى بين الأوراق؛ إنها من علي ... كتبها لي:

لقد قرأت نصوص پارسا. أعتقد أنه كان عاشقًا، ولكن لا علاقة لمعشوقته بانتحاره. يُحتمل أنه انتحر لأن إدراكه كان قاصرًا عن بلوغ ماهية الحب، وبدلًا من أن يسيطر هو على ذلك الحب، انتصر عليه شعورٌ جديد. لقد تعذّب بشدة، ليس من معشوقته؛ بل من الحب ذاته. ويبدو حتى أن معشوقته كانت تحاول مساعدته في فهم الحب، لكن ذهن پارسا لم يستطع إدراك أبعاد وتعقيدات هذا المعنى الجديد. كأن الحب قد سطع بشكلٍ مُفاجئ على وجوده، وعجزت أدواته عن قياسه، ولهذا لم يستطع

تصنيفه أو الكتابة عنه مثل باقي الموضوعات في كتابه المخطوط. إنك لا تستطيع، يا يونس؛ أن تُجَرِّد ماهية الألوهيّة لتضعها في خانة جنبًا إلى جنب مع باقي معاني حياتك. عندما يلتمع وجود الله، مثل ثلج الشتاء؛ في براءة الأطفال، فأين أنت منه يا يونس؟ حقًا أين تكون حينذاك؟ ربما لم يُظهر الله وجوده في أي موضع آخر من الكون بأكثر مما جلّاهُ في براءة الأطفال. في بعض الأحيان أمتلئ خوفًا من شدة تجلّي ذلك الوجود اللامتناهي في براءة الأطفال، ويبدأ قلبي بالخفقان بقوة وسرعة حين أركض حائرا ملهوفًا، لقطف بعض هذا النور الذي يتلألأ من وجدانات الأطفال. أين أنت من ذلك يا يونس؟

أعدت الأوراق إلى المظروف، ونهضت من على المقعد وخطوت عدّة خطوات، لكن انتابني صداع شديد وبشكل مُفاجئ، فاتكأت على شجرة حتى أتمالك نفسي. بعد قليل، وعندما كنت أعبر ممر الحديقة؛ لمحت الصبي الصغير الذي انقطع خيط طائرته الورقية. كان لا يزال يبكي. فتوجهت إليه لا ألوي على شيء، وحدقت بعينيه الممتلئتين بالدموع من وراء نظاراته السميكة. ثم سألته: «أتحب أن أصلح لك خيط طائرتك الورقية؟».

نظر إليَّ لكنه لم ينبس ببنت شفة. أضفت: «وإذا أردت فيُمكنني أن أطيّرها لك أيضًا».

- إلى أي مدى؟ إلى أي مدى تستطيع أن تُطيّرها؟ أتستطيع أن تُطيّرها أعلى من أشجار الدلب؟

- ربما. ربما أستطيع؛ في الحقيقة أني كنت أستطيع ذلك وأنا في مثل عمرك.

وضعت مظروف الأوراق على الأرض تحت شجرة، وأخذت الطائرة الورقية منه لأصلح خيطها المقطوع. ألصقت شرائط الطائرة الورقية، التي تتشكل من حلقات من الورق الأزرق؛ بعدها فتحت العُقد الورقية لذيلها. أمعنت النظر إلى أغصان الأشجار، لأعرف اتجاه الريح. كانت الحديقة خاوية تقريبًا إلا من بعض الأطفال، وبضعة عجائز قد جلسوا هنا وهناك، على المقاعد الإسمنتية؛ يحدثون بعضهم بعضًا. عقدت خيطًا إضافيًا حول عنق الطائرة الورقية، لئلا ينقطع عند الركض. ونظرت إلى الصبي الذي كان يُراقبني بانتباه، ثم ابتسمنا سويًا. كانت نظاراته معقودة بخيط حول رقبته لئلا تقع على الأرض، وكان جيب بنطاله مُمزقًا بعض الشيء، وأحد أزرار قميصه غير موجود.

أرخيت مقدار مترين من الخيط، ثم بدأت بالركض عكس اتجاه الريح، وركض الصبي ورائي. كنت كلما ركضت؛ ارتفعت الطائرة عن الأرض واستقر طيران رأسها اللوزي بموازاة الأرض. أطلقت الخيط قليلًا قبل أن أزيد من سرعتي. كان الصبي قد تخلّف عني بمسافة. ألقت الطائرة بظلّها على الأرض، وتملّكني هوسٌ أحمق لأطلقها إلى أقصى مدى يسمح به الخيط. شرعت الطائرة بالارتفاع، وعندما وصلت إلى نهاية الممر؛ أطلقت عدّة أمتار أخرى من الخيط. حركت الخيط إلى الأمام والخلف حتى ترتفع الطائرة. كنت ألهث، فخطر ببالي أني لم أركض منذ مدّة. أطلقت باقي الخيط بالتدريج، وسمحت للريح بأن تحمل الطائرةَ الورقيةَ معها إلى الجهة الشرقية من الحديقة. كنت كلما أطلقت الخيط؛ بدت الطائرة أصغر وأصغر لعيني. وصل الصبي قُربي لاهثًا من الفرح، وصرخ جذلًا من أعماق قلبه: «مرحى!

مرحى!»، وبدون أن أخفض عيني عن الطائرة الورقية؛ ناولته الخيط، وأفهمته ألا يشده بقوة أو يُرخيه فجأة، وأوضحت له أن الاحتفاظ بالطائرة في الأعلى أصعب من إطلاقها.

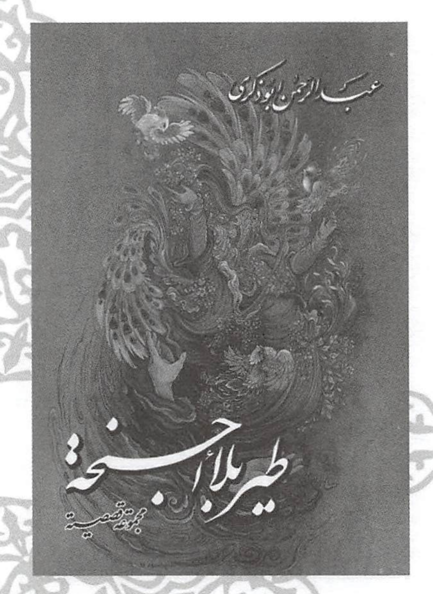
أخذت يديه الصغيرتين في يديّ، وطلبت منه إرسال الخيط بعض الشيء، وعندما أمسى الخيط بين يديه؛ أخذت أعلمه كيف يُسيطر على الطائرة، وتوجّه يداىَ يديه حتى نجح برفعها قليلًا للأعلى. بعدها تركتُ يديه بلطف؛ ليتسلّم قياد الطائرة الورقية وحده. لدقيقة غرقت في الطائرة الورقية، التي تُحلّق في السماء؛ ثم حدقت في الغلام الذي كان يُحرّك الخيط بحماسٍ وخوف، وابتعدت باتجاه الشجرة التي تركت تحتها مظروف نصوص پارسا. كنتُ كلما ابتعدت عدّة خطوات، ارتفع صوت الصبي جذلًا ليملأ الحديقة. لم ألتفت إلى الوراء إلا عندما صرخ الصبي: «مرحى! مرحى! يا رفاق! لقد وصلت طائرتي الورقية إلى السماء؛ وصلت إلى الله!». ساعتها نظرت إلى السماء، حيث كانت الطائرة الورقية قد وصلت إلى الله.

طير بلا أجنحة

قريباً | مجموعة قصصية

"كان الناقد والأديب المصري المعروف شُكري عياد يرى في فعل الكتابة؛ وقاحة! أمّا أستاذنا علي عزّت بيغوفيتش، فرأى فيها غرورًا واضحا؛ إذ ما الذي قد يجعلُ كاتبًا يعتقد أن الناس بحاجة لمعرفة رأيه في شأنٍ من الشئون! ورغم ذلك كُلِّه، فقد خلّف كليهما من النصوص المكتوبة الشيء الكثير؛ ذلك أنّهُ لا شيء غير الكتابة يُشبع "أنا" الكاتب والأديب! فالكاتبُ في هو شخصٌ يمتلكُ حدًّا أدنى من اليقين، ولو كان يقينًا لا شعوريًا أو حتّى سلبيًا ومُدمِّرا؛ حدًّا أدنى يدفعه للإقدام على ذلك الفعل مُجانبًا التواضُع بصورةٍ لا شعوريّة؛ طالبًا إلى العالم الانتباه لشهادته!

من مقدّمة الكتاب"



عبدالرحمن أبوذكري

أديب ومفكر ومترجم وناشر مصري. وُلِد بالقاهرة، وتخرّج في كلية الآداب بجامعتها. نشر عدة مقالات وأوراق بحثية في موضوعاتٍ متنوعة؛ تصُب جميعًا في استعادة مركزية الوحي الإلهي وتجديد الاجتهاد في الفكر والحركة الإسلاميين. مُهتمٌ بالنقد الأدبي. ويمكن اعتباره امتدادًا لمدرسة «تجديد الدرس الكلامي الإسلامي» التي دشّنها سيّد قطب، ورسّخها علي عزت بيغوفيتش، وأثراها عبد الوهاب المسيري. نُشر له كتاب: «أفكار خارج القفص»، وله عدة كتب في طريقها للطبع؛ منها: «في أصول التصوّر الإسلامي»، وترجمة آثار الدكتور كليم صديقي.